من عند ربي، فاعتزلون: يقول: فخلوا سبيلي غير مرجوم باللسان ولا باليد.

قال السعدي رحمه الله في «تيسير الكريم الرحمن»:

﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ﴾ أي: لكم ثلاث مراتب: الإيمان بي وهو مقصودي منكم فإن لم تحصل منكم هذه المرتبة فاعتزلوني لا علي ولا لي، فاكفوني شركم. فلم تحصل منهم المرتبة الأولى ولا الثانية بل لم يزالوا متمردين عاتين على الله محاربين لنبيه موسى عليه السلام غير ممكنين له من قومه بني إسرائيل.

مشهد من مشاهد اللقاء بين موسى عليه السلام

وبين فرعون من سورة غافر وفي ثناياها قصة مؤمن آل فرعون

أولاً: ذِكر الآيات الواردة في هذا الصدد:

قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ

عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ [غافر: ٢٣-٣٧].

ثانيًا: معاني مفردات الآيات المباركات:

الكلمة	معناها
﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾	بحججنا الدالة على وحدانيتنا والدالة على نبوة موسى عليه السلام
﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾	حجة مظهرةٌ لمن تأملها أن موسى عليه السلام صادق
﴿وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ﴾	استبقوا نساءهم للخدمة والامتهان اتركوا نساءهم أحياء
﴿كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾	مكر الكافرين - احتيال الكافرين - تدبير الكافرين
﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾	ضياع-ذهاب-بطلان-عدم فائدة - حيودٌ عن طريق الحق
﴿ذَرُونِىٓ﴾	دعوني - اتركوني

الكلمة	معناها
﴿عُذْتُ﴾	لجأت إلى ربي مستنجدًا به
﴿مُسْرِفٌ﴾	مشرك - مكثر من الكبائر والقتل والإجرام
﴿ظَٰهِرِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾	ممكنون في الأرض، لكم الغلبة فيها على غيركم
﴿بَأْسِ ٱللَّهِ﴾	عذاب الله
﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾	ما أرشدكم إلا إلى طريق الحق
﴿يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾	اليوم الذي أحلَّ الله فيه بالأحزاب عذابه ونقمته- والأحزاب هم الذين تحزبوا على أنبيائهم لحربهم وتكذيبهم
﴿دَأْبِ﴾	عادة - شأن
﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾	يوم القيامة - ينادي الخلق بعضهم بعضًا
﴿تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾	تنصرفون هاربين
﴿عَاصِمٍ﴾	مانع يمنعكم من العذاب
﴿هَلَكَ﴾	مات
﴿مُّرْتَابٌ﴾	شاك
﴿ٱلْأَسْبَٰبَ﴾	قصرًا عاليًا شاهقًا منيعًا
﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾	الطرق - الأبواب - ما يتوصل به إلى الأشياء
﴿تَبَابٍ﴾	الطرق المؤدية إلى السموات وأبوابها
	خسار - بطلان - ضلال

ثالثًا : المعنى الإجمالي للآيات:

أقول، وبالله تعالى التوفيق: هذه آيات سيقت لتصبير النبي ﷺ ولمواساته على ما يلقى من أذى قومه.

وهذا بيانٌ لمعناها: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ

﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر:٢٣-٢٤].

المراد، والله أعلم بالآيات هي: الآيات التسع التي ذكرها الله عَزَّوَجَلَّ إذ قال: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾ [الإسراء: ١٠١]، وأعظمها العصى التي تتحول بإذن الله إلى حية تسعى، واليد التي تخرج بيضاء من غير سوء.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾.

فمعناه: والله أعلم، ولقد أرسلنا يا رسولنا من قبلك موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى فرعون الذي ادعى الربوبية والإلهية فقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، وقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: ٢٤]، وكذا إلى وزيره وزير السوء هامان، وإلى الذي أطغاه ماله وجاهه وهو قارون الإسرائيلي الطاغي الباغي.

أرسلنا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لهؤلاء بحججنا الدالة على قدرتنا ووحدانيتنا، والدالة على صدق رسولنا فما كان منهم، وبعد رؤيتهم للآيات إلا تكذيب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ووصفه بالسحر، وهكذا شأن الأمم السابقة لأمتك يا رسول الله، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الذاريات: ٥٢]، فلا تجزع يا رسول الله ولا تحزن إذا وصفك قومك بالسحر، فقد وُصف من قبلك بمثل هذا.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره مسليًا نبيه محمد ﷺ، عما كان يلقى من مشركي قومه من قريش، بإعلامه ما لقي موسى ممن أرسل إليه من التكذيب، ومخبره أنه معليه عليهم، وجاعل دائرة السوء على من حاده وشاقه، كسنته في موسى صلوات الله عليه، إذ أعلاه، وأهلك عدوه فرعون ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ : يعني

بأدلته ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾.

وقال:

يقول: وحججه المبينة لمن يراها أنها حجة محققة ما يدعو إليه موسى ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ يقول: فقال هؤلاء الذين أرسل إليهم موسى لموسى: هو ساحر يسحر العصا، فيرى الناظر إليها أنها حية تسعى.

﴿كَذَّابٌ﴾ يقول: يكذب على الله، ويزعم أنه أرسله إلى الناس رسولا.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى مسليًا لنبيه ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه، ومبشرًا له بأن العاقبة والنصرة له في الدنيا والآخرة، كما جرى لموسى بن عمران، فإن الله تعالى أرسله بالآيات البينات، والدلائل الواضحات؛ ولهذا قال: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ والسلطان هو: الحُجة والبرهان.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ هو: ملك القبط بالديار المصرية، ﴿وَهَٰمَٰنَ﴾ وهو: وزيره في مملكته ﴿وَقَٰرُونَ﴾ وكان أكثر الناس في زمانه مالًا وتجارة ﴿فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ أي: كذبوه وجعلوه ساحرًا مُمَخْرِقًا مموهًا كذابًا في أن الله أرسله. وهذه كقوله: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢-٥٣].

وهنا سؤال يُطرح:

كيف وجه الأمر بقتل الأبناء لما جاءهم موسى بالبينات، ومعلوم أن قتل الأبناء كان قديمًا في العام الذي ولد فيه موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؟

وجوابه:

قال بعض أهل العلم: إن الأمر بقتل الأبناء تكرر وشُدِّد فيه مرة ثانية بعد

مجيء موسى عليه السلام ولذا قال قوم موسى لموسى عليه السلام: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَآ ...﴾ [الأعراف: ١٢٩] والله أعلم.

أما عن معنى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾.

فالمعنى، والله أعلم، وما كان جواب فرعون على ما دعاه إليه موسى عليه السلام إلا التكذيب والتهديد بالقتل بل الأمر بقتل الأبناء الصغار واستبقاء النساء لإذلال أهاليهن وأزواجهن ولاستخدامهن وامتهانهن، ولكن كل ذلك لم يكن بضائر أهل الإيمان شيئًا فمكر الكافرين في ضياع وذهاب وبطلان، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: فلما جاء موسى هؤلاء الذين أرسله الله إليهم بالحق من عندنا، وذلك مجيئه إياهم بتوحيد الله، والعمل بطاعته، مع إقامة الحجة عليهم، بأن الله ابتعثه إليهم بالدعاء إلى ذلك ﴿قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ﴿مَعَهُۥ﴾ من بني إسرائيل ﴿وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ﴾ يقول: واستبقوا نساءهم للخدمة.

فإن قال قائل: وكيف قيل: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ﴾، وإنما كان قتل فرعون الولدان من بني إسرائيل حذار المولود الذي كان أخبر أنه على رأسه ذهاب ملكه، وهلاك قومه، وذلك كان فيما يقال قبل أن يبعث الله موسى نبيًّا؟ قيل: إن هذا الأمر بقتل أبناء الذين آمنوا مع موسى، واستحياء نسائهم، كان أمرًا من فرعون وملئه من بعد الأمر الأول الذي كان من فرعون قبل مولد موسى.

وأورد بإسنادٍ حسنٍ عن قتادة قال: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ﴾ قال: هذا قتل غير القتل الأول الذي كان.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ يقول: وما احتيال أهل الكفر لأهل الإيمان بالله إلا في جور عن سبيل الحق، وصد عن قصد المحجة، وأخذ على غير هدى.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا﴾ أي: بالبرهان القاطع الدال على أن الله تعالى أرسله إليهم، ﴿قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ وهذا أمر ثان من فرعون بقتل ذكور بني إسرائيل. أما الأول: فكان لأجل الاحتراز من وجود موسى، أو لإذلال هذا الشعب وتقليل عددهم، أو لمجموع الأمرين. وأما الأمر الثاني: فللعلة الثانية، لإهانة هذا الشعب، ولكي يتشاءموا بموسى، عليه السلام؛ ولهذا قالوا: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

قال قتادة: هذا أمر بعد أمر.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي: وما مكرهم وقصدهم الذي هو تقليل عدد بني إسرائيل لئلا يُنصروا عليهم، إلا ذاهب وهالك في ضلال.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا﴾ وهي المعجزة الظاهرة ﴿قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ قال قتادة: هذا قتل غير القتل الأول لأن فرعون كان قد أمسك عن قتل الولدان بعد ولادة موسى فلما بعث الله موسى أعاد القتل على بني إسرائيل عقوبة لهم فيمتنع الإنسان من الإيمان ولئلا يكثر جمعهم فيعتضدوا بالذكور من أولادهم، فشغلهم الله عن ذلك بما أنزل عليهم

من أنواع العذاب كالضفادع والقمل والدم والطوفان إلى أن خرجوا من مصر فأغرقهم الله وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي في خسران وهلاك وإن الناس لا يمتنعون من الإيمان وإن فعل بهم مثل هذا فكيده يذهب باطلًا.

هذا، وهنا فائدة ولفتةٌ تبرز من خلال سؤال حاصله:

لماذا قيل: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ ولم يقل: (وما كيدهم إلا في ضلال)؟

ذلك، والله أعلم، للخروج بالقصة إلى حيز العموم؛ لبيان أن كل كافرٍ كيده في ضلال.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «تيسير الكريم الرحمن»:

﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾، حيث لم يتم لهم ما قصدوا، بل أصابهم ضد ما قصدوا، أهلكهم الله وأبادهم عن آخرهم.

قاعدة

وتدبر هذه النكتة التي يكثر مرورها بكتاب الله تعالى: إذا كان السياق في قصة معينة أو على شيء معين، وأراد الله أن يحكم على ذلك المعين بحكم، لا يختص به ذكر الحكم، وعلقه على الوصف العام ليكون أعم، وتندرج فيه الصورة التي سيق الكلام لأجلها، ولينـدفع الإيهام باختصاص الحكم بذلك المعين.

فلهذا لم يقل: (وما كيدهم إلا في ضلال). بل قال: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾﴾.

وأعود قائلاً: إن فرعون تمادى في الغيِّ قائلاً ما ذكره الله عنه في كتابه إذ قال: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن

يُظْهِـرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَـادَ ﴿٢٦﴾﴾.

والمعنى، والله أعلم، أن فرعون يقول لقومه لما جاءه موسى بالبينات، وعجز فرعون عن مواجهة الحجة بالحجة، فما كان منه إلا أن لوح بالبطش والقتل وهدّد به فقال لقومه: دعوني أقتل موسى وليدع ربه أن ينجيه مني، دعوني أقتله فإني أخاف أن ينشر الفساد في الأرض، وهكذا ادعى عدو الله فرعون على نبي الله وكليمه موسى أنه يريد أن يظهر الفساد في الأرض، فغريب ومستنكر صنيع أهل الإجرام.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لملئه: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ الذي يزعم أنه أرسله إلينا فيمنعه منا ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ يقول: إني أخاف أن يغير دينكم الذي أنتم عليه بسحره.

ثم قال بعد أن أورد قراءتين في قوله تعالى: ﴿أَوْ أَن يُظْهِـرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَـادَ﴾ [غافر:٢٦]

إحداهما: ﴿أَوْ أَن يُظْهِـرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَـادَ﴾. كقراءة المصحف.

والأخرى: ﴿**أو أن يَظهر في الأرض الفساد**﴾.

قال الطبري بعد ذلك:

فتأويل الكلام إذن: إني أخاف من موسى أن يغير دينكم الذي أنتم عليه، أو أن يظهر في أرضكم أرض مصر، عبادة ربه الذي يدعوكم إلى عبادته، وذلك كان عنده هو الفساد.

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

وأورد بإسنادٍ حسن: عن قتادة: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾: أي أمركم الذي أنتم عليه ﴿أَوْ أَن يُظْهِـرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَـادَ﴾ والفساد عنده أن يعمل بطاعة الله.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ وهذا عَزْمٌ من فرعون -لعنه الله-على قتل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أي: قال لقومه: دعوني حتى أقتل لكم هذا، ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ أي: لا أبالي منه. وهذا في غاية الجحد والتجهرم والعناد.

وقوله -قبحه الله-: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ يعني: موسى، يخشى فرعون أن يُضِلَّ موسى الناس ويغير رسومهم وعاداتهم. وهذا كما يقال في المثل: «صار فرعون مُذَكِّرًا» يعني: واعظًا، يشفق على الناس من موسى، عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقرأ الأكثرون: ﴿أن يبدل دينكم وأن يُظهِر في الأرض الفساد﴾ وقرأ آخرون: ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ وقرأ بعضهم: ﴿يَظْهَر في الأرض الفسادُ﴾ بالضم.

وقال موسى: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: لما بلغه قول فرعون: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ قال موسى: استجرتُ بالله وعُذْتُ به من شره وشر أمثاله؛ ولهذا قال: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ أيها المخاطبون ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ أي: عن الحق، مجرم، ﴿لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾.

وأعود قائلاً: ماذا كان موقف موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أمام هذه التهديدات التي هدده بها فرعون اللعين؟!!

أقول: دائمًا وأبدًا أهل الإيمان يعتصمون بالله عَزَّوَجَلَّ وموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إمام من أئمة الهدي ورسولاً من رسل الله الكرام، ما كان أمامه إلا أن يلجأ إلى الله مستنجدًا به مستجيرًا به فقال: إني استجرت بربي عَزَّوَجَلَّ فهو ربي وربكم من كل متعال على الحق مستكبر في الأرض لا يقر ببعثٍ ولا يؤمن بثوابٍ ولا عقابٍ.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وقال موسى لفرعون وملئه: إني استجرت أيها القوم بربي

وربكم، من كل متكبر عليه، تكبر عن توحيده، والإقرار بألوهيته وطاعته، لا يؤمن بيوم يحاسب الله فيه خلقه، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بما أساء؛ وإنما خص موسى صلوات الله وسلامه عليه، الاستعاذة بالله ممن لا يؤمن بيوم الحساب، لأن من لم يؤمن بيوم الحساب مصدقًا، لم يكن للثواب على الإحسان راجيًا، ولا للعقاب على الإساءة، وقبيح ما يأتي من الأفعال خائفًا، ولذلك كان استجارته من هذا الصنف من الناس خاصة.

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ:

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن نبيه موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، عاذ بربه ، أي اعتصم به ، وتمنع من كل متكبر ، أي متصف بالكبر ، لا يؤمن بيوم الحساب ، أي لا يصدق بالبعث والجزاء .

وسبب عياذ موسى بربه المذكور ، أن فرعون قال لقومه : ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾.

[غافر: ٢٦]

فعياذ موسى المذكور بالله إنما هو في الحقيقة من فرعون ، وإن كانت العبارة أعم من خصوص فرعون ، لأن فرعون لا شك أنه متكبر ، لا يؤمن بيوم الحساب فهو داخل في الكلام دخولًا أوليًّا ، وهو المقصود بالكلام .

قصة مؤمن آل فرعون

وفي خضم الأحداث، وفي ثنايا المشكلات، وبين يدى التهديدات، وفي وسط المؤامرات التي تحاك ضد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، والترتيبات التي تُعدُّ لذلك يظهر رجلٌ مؤمن فاضلٌ يُقيضه الله عَزَّوَجَلَّ للدفاع عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ!!

وكذا لإقامة الحجة على فرعون وملئه!!

فرأي أنه لزامًا عليه أن يقول كلمة الحق وأن ينطق بها فالوقت وقتها

والمناسبةُ مناسبتها، فلقد أفصح القوم عن هويتهم وأظهروا رغبتهم في قتل موسى عليه السلام فكان لزامًا أن يدافع هذا المؤمن عن موسى قدر جهده وقدر استطاعته.

قيض الله هذا الرجل للدفاع عن موسى عليه السلام!

كما قيض الله عز وجل لموسى في المهد امرأة فرعون تدافع عنه!!

وكما قيض الله عز وجل لموسى عليه السلام رجلاً جاءه من أقصى المدينة يسعى يقول: إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين.

وهكذا دومًا فإن الله يدافع عن الذين آمنوا فيا هنيئًا لأهل الإيمان.

❁ لقد قام هذا الرجل المؤمن من آل فرعون – وقيل إنه ابن عم فرعون – قام يُذكرِّ ويدافع بالحكمة والموعظة الحسنة، ويوضح الحق من الباطل، ويُحذِّر من عقاب الله عز وجل.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾.

والمعنى، والله تعالى أعلم، وقال رجل مؤمن من قوم فرعون، يُسرُّ بالإيمان ويخفيه ولا يظهره: كيف تقتلون رجلًا لا لشيء إلا لكونه قال ربي الله، وقد جاءكم بالحجج الدالة على صدقه في دعواه النبوة وإن يك كاذبًا فإثمه على نفسه، وإن يك صادقًا ما حذروا فقد يحل بكم ما وعدكم به وما دعا عليكم به إن الله لا يوفق للطاعة من هو مشرك مسرف على نفسه بالكبائر والشركيات وظلم العباد.

والناظر إلى مقولة هذا الرجل المؤمن والمدقق فيها يرى أن الرجل، وإن كان يكتم إيمانه، لكن قد جاء الوقت الذي يلزم فيه الكلام، فالكلام فيه أفضل من الكتمان!! بل وأوجب أن يُقال!

❁ ويرى المتأمل أن هذا الرجل خاطب قومه بطريقة فيها تعقل وفيها أيضًا لينٌ وآدبٌ وحكمةٌ وتوفيقٌ، وفي ذات الوقت تحذيرٌ غضب الله وعقابه.

لقد قدَّم مؤمن آل فرعون احتمالية الكذب على احتمالية الصدق في قوله: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ﴾.

وهذا والله أعلم، لدفع الشبهة والرِّيبة حتى لا يظن أنه ممالئ ومجامل لموسى عليه السلام.

ومن نظائر هذا في القرآن: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٢٦ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[يوسف: ٢٦-٢٧]

وقوله: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٤﴾، والله أعلم.

ثم إن هذا المؤمن حذَّر قومه بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾.

[غافر:٢٧]

إن الله لا يوفق لطاعته ولا يوفق للإيمان به ولا يوفق للخير ﴿مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ﴾ على نفسه بالشرك والكبائر والمعاصي ﴿كَذَّابٞ﴾ يكذب على الله عزوجل فمفاد كلامه لهم إن كان موسى عليه السلام كذاب على الله فلن يوفّق.

❁ وكذلك في الكلام إشارة إلى تحذير فرعون من الكذب والإسراف!!

❁ تحذيرٌ له من قتل النفوس البريئة وظلم العباد!!

❁ تحذيرٌ له من الكذب ودعوى الإلهية فقد كان يقول: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤]. ويقول: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص:٣٨]. !!

ثم استمر هذا الرجل في تذكيره وتحذيره قائلاً متلطفًا في القول وفي ذات الوقت مُحذِّرًا مُخوفًا من عقاب الله ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ﴾ [غافر:٢٩]. أي أنكم ممكنون في الأرض غالبون من ناوأكم وخالفكم فمن ذا الذي يمنعنا من عذاب الله إن حلَّ بنا عذابه ونزل بنا عقابه؟؟

فلا تظنوا أن قوتكم ستدوم، ولا أن عزَّكم سيستمر فقد يحل بكم بأس الله وينزل عليكم عقابه!!

❁ ولكن هل انتفع فرعون بهذه الموعظة البليغة التي وُعظ بها؟!!

كلا لم ينتفع فرعون ولم تُجدِ معه تلك الموعظة!!

فتمادى في الكفر وادعى أنه الرب الأعلى، وأنه الإله الأعظم الذي ليس معه إله، وقتل العباد وذبح الأطفال وتكبر على الحق!!

وكل ذلك كان سببًا في منعه من الإيمان والحيلولة بينه وبين الهداية.

ثم إنه كيف يهتدى وقد كُتبت عليه الشقاوة وسلك هو طريقها!!

حقًّا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾ [غافر:٢٨].

ثم بماذا ردَّ فرعون على نصيحة قريبه الناصح!!

بماذا ردَّ على المؤمن الذي ذكرَّه ووعظه.

لقد تمادى فرعون في الكفر قائلاً: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر:٢٩].

يدعي عدو الله أن الرأي رأيه وأنه يقدم النصيحة لقومه فيقول: إن الذي أشير به عليكم هو رأيي ونصيحتي لكم وما أريد لكم إلا النصح والهداية لطريق الحق!

هكذا يدّعى أنه يهدي القوم إلى طريق الحق والرشاد!!

هكذا تقلب الحقائق!

فالمفسد يدَّعي أنه إمام المُصلحين، ويصدقه قومه على ذلك!!

❁ أما كليم الله ورسوله موسى عليه السلام إمامُ الهدى في زمانه فيُوصف هو وقومه بالإفساد في الأرض، وأنه سيظهر في الأرض الفساد!!

فحقًّا إنها أمورٌ غريبة وفِطرٌ مطموسة وقلوب مُدنسة وألسنة كاذبة.

تلك التي تقلب الحق باطلاً والباطل حقًّا وتصدق نفسها في ذلك:

فأعود مذكرًا بأقوال بعض أهل العلم بالتفسير، في تفسير القدر المذكور سابقًا من قصة مؤمن آل فرعون.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ اختلف أهل العلم في هذا الرجل المؤمن، فقال بعضهم: كان من قوم فرعون، غير أنه كان قد آمن بموسى، وكان يسر إيمانه من فرعون وقومه خوفًا على نفسه.

وقوله: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ يقول: أتقتلون أيها القوم موسى لأن يقول ربي الله؟ فـ﴿أَن﴾ في موضع نصب لما وصفت. ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ يقول: وقد جاءكم بالآيات الواضحات على حقيقة ما يقول من ذلك. وتلك البينات من الآيات يده وعصاه.

وقوله: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ يقول: وإن يك موسى كاذبًا في قيله: إن الله أرسله إليكم يأمركم بعبادته، وترك دينكم الذي أنتم عليه، فإنما إثم كذبه عليه دونكم ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ يقول: وإن يك صادقًا في قيله ذلك، أصابكم الذي وعدكم من العقوبة على مقامكم على الدين الذي أنتم عليه مقيمون، فلا حاجة بكم إلى قتله، فتزيدوا ربكم بذلك إلى سخطه عليكم بكفركم سخطًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ يقول: إن الله لا يوفق للحق من هو متعد إلى فعل ما ليس له فعله، كذاب عليه يكذب، ويقول عليه الباطل وغير الحق.

وقد اختلف أهل التأويل في معنى الإسراف الذي ذكره المؤمن في هذا الموضع، فقال بعضهم: عني به الشرك، وأراد: إن الله لا يهدي من هو مشرك به مفتر عليه.

وأورد بإسنادٍ حسنٍ عن قتادة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾ :

مشرك أسرف على نفسه بالشرك.

وقال آخرون: عنى به من هو قتال سفاك للدماء بغير حق.

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله أخبر عن هذا المؤمن أنه عم بقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾ والشرك من الإسراف، وسفك الدم بغير حق من الإسراف، وقد كان مجتمعًا في فرعون الأمران كلاهما، فالحق أن يعم ذلك كما أخبر جل ثناؤه عن قائله، أنه عم القول بذلك.

ثمَّ قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره مخبرًا عن قيل المؤمن من آل فرعون لفرعون وملئه: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يعني: أرض مصر، يقول: لكم السلطان اليوم والملك ظاهرين أنتم على بني إسرائيل في أرض مصر ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ﴾ يقول: فمن يدفع عنا بأس الله وسطوته إن حل بنا، وعقوبته إن جاءتنا، قال فرعون ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ يقول: قال فرعون مجيبًا لهذا المؤمن الناهي عن قتل موسى: ما أُريكم أيها الناس من الرأي والنصيحة إلا ما أرى لنفسي ولكم صلاحًا وصوابًا، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد. يقول: وما أدعوكم إلا إلى طريق الحق والصواب في أمر موسى وقتله، فإنكم إن لم تقتلوه بدل دينكم، وأظهر في أرضكم الفساد.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾ أي: كيف تقتلون رجلًا لكونه يقول: ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾، وقد أقام لكم البرهان على صدق ما جاءكم به من الحق؟ ثم تنزل معهم في المخاطبة فقال: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ﴾ يعني: إذا لم يظهر لكم صحة ما جاءكم به، فمن العقل والرأي التام والحزم أن تتركوه ونفسه، فلا تؤذوه، فإن يك كاذبًا فإن الله سيجازيه على كذبه بالعقوبة في الدنيا والآخرة، وإن يك صادقًا وقد

آذيتموه يصبكم بعض الذي يعدكم، فإنه يتوعدكم إن خالفتموه بعذاب في الدنيا والأخرى، فمن الجائز عندكم أن يكون صادقًا، فينبغي على هذا ألا تتعرضوا له، بل اتركوه وقومه يدعوهم ويتبعونه.

وهكذا أخبر الله عن موسى عليه السلام أنه طلب من فرعون وقومه الموادعة في قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ [الدخان:١٧ -٢١]، وهكذا قال رسول الله ﷺ لقريش أن يتركوه يدعو إلى الله عباد الله، ولا يمسوه بسوء، وأن يصلوا ما بينه وبينهم من القرابة في ترك أذيته، قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى: ٢٣] أي: إلا أن لا تؤذوني فيما بيني وبينكم من القرابة، فلا تؤذوني وتتركوا بيني وبين الناس. وعلى هذا وقعت الهدنة يوم الحديبية، وكان فتحًا مبينًا.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ أي: لو كان هذا الذي يزعم أن الله أرسله إليكم كاذبًا كما تزعمون، لكان أمره بينًا، يظهر لكل أحد في أقواله وأفعاله، كانت تكون في غاية الاختلاف والاضطراب، وهذا نرى أمره سديدًا ومنهجه مستقيمًا، ولو كان من المسرفين الكذابين لما هداه الله، وأرشده إلى ما ترون من انتظام أمره وفعله .

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: قد أنعم الله عليكم بهذا الملك والظهور في الأرض بالكلمة النافذة والجاه العريض، فراعوا هذه النعمة بشكر الله، وتصديق رسوله ﷺ، واحذروا نقمة الله إن كذبتم رسوله، ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ أي: لا تغني عنكم هذه الجنود وهذه العساكر، ولا ترد عنا شيئًا من بأس الله إن أرادنا بسوء.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لقومه، رادًّا على ما أشار به هذا الرجل الصالح البار الراشد

الذي كان أحق بالملك من فرعون: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ أي: ما أقول لكم وأشير عليكم إلا ما أراه لنفسي وقد كذب فرعون، فإنه كان يتحقق صدق موسى فيما جاءه به من الرسالة ﴿قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء:١٠٢]، وقال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾ [النمل: ١٤].

فقوله: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ كذب فيه وافترى، وخان الله ورسوله ورعيته، فغشهم وما نصحهم وكذا قوله: ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أي: وما أدعوكم إلا إلى طريق الحق والصدق والرشد وقد كذب أيضًا في ذلك، وإن كان قومه قد أطاعوه واتبعوه، قال الله تعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾ [هود: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه: ٧٩]، وفي الحديث[1]: «**ما من إمام يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته، إلا لم يَرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام**».

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «تيسير الكريم الرحمن»:

فقال ذلك الرجل المؤمن الموفق العاقل الحازم، مقبحًا فعل قومه، وشناعة ما عزموا عليه: ﴿أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ أي: كيف تستحلون قتله، وهذا ذنبه وجرمه، أنه يقول ربي الله، ولم يكن أيضًا قولًا مجردًا عن البينات، ولهذا قال: ﴿وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ﴾ لأن بينته اشتهرت عندهم اشتهارًا علم به الصغير والكبير، أي: فهذا لا يوجب قتله.

فهلا أبطلتم قبل ذلك ما جاء به من الحق، وقابلتم البرهان ببرهان يرده، ثم بعد ذلك نظرتم: هل يحل قتله إذا ظهرتم عليه بالحجة أم لا؟ فأما وقد ظهرت حجته، واستعلى برهانه، فبينكم وبين حل قتله مفاوز تنقطع بها أعناق المطي.

ثم قال لهم مقالة عقلية تقنع كل عاقل، بأي حالة قدرت، فقال: ﴿وَإِن يَكُ

(١) البخاري (٧١٥٠)، ومسلم (١٤٢).

﴿كَٰذِبًا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَٰدِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ﴾.

أي: موسى بين أمرين، إما كاذب في دعواه أو صادق فيها، فإن كان كاذبًا فكذبه عليه، وضرره مختص به، وليس عليكم في ذلك ضرر حيث امتنعتم من إجابته وتصديقه، وإن كان صادقًا وقد جاءكم بالبينات، وأخبركم أنكم إن لم تجيبوه عذبكم الله عذابًا في الدنيا وعذابًا في الآخرة، فإنه لا بد أن يصيبكم بعض الذي يعدكم، وهو عذاب الدنيا.

وهذا من حسن عقله، ولطف دفعه عن موسى، حيث أتى بهذا الجواب الذي لا تشويش فيه عليهم، وجعل الأمر دائرًا بين تينك الحالتين، وعلى كل تقدير فقتله سفه وجهل منكم.

ثم انتقل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه وغفر له ورحمه - إلى أمر أعلى من ذلك، وبيان قرب موسى من الحق فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ﴾ أي: متجاوز الحد بترك الحق والإقبال على الباطل. ﴿كَذَّابٞ﴾ بنسبته ما أسرف فيه إلى الله، فهذا لا يهديه الله إلى طريق الصواب، لا في مدلوله ولا في دليله، ولا يوفق للصراط المستقيم، أي: وقد رأيتم ما دعا موسى إليه من الحق، وما هداه الله إلى بيانه من البراهين العقلية والخوارق السماوية، فالذي اهتدى هذا الهدى لا يمكن أن يكون مسرفًا ولا كاذبًا، وهذا دليل على كمال علمه وعقله ومعرفته بربه.

ثم حذر قومه ونصحهم، وخوفهم عذاب الآخرة، ونهاهم عن الاغترار بالملك الظاهر، فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ أي: في الدنيا ﴿ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ على رعيتكم، تنفذون فيهم ما شئتم من التدبير، فهبكم حصل لكم ذلك وتم، ولن يتم، ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ﴾ أي: عذابه ﴿إِن جَآءَنَاۚ﴾ ؟ وهذا من حسن دعوته، حيث جعل الأمر مشتركًا بينه وبينهم بقوله: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا﴾ وقوله: ﴿إِن جَآءَنَاۚ﴾ ليفهمهم أنه ينصح لهم كما ينصح لنفسه، ويرضى لهم ما يرضى لنفسه.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ معارضًا له في ذلك، ومغررًا لقومه أن يتبعوا موسى: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾ وصدق في قوله: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ ولكن ما الذي رأى؟

رأى أن يستخف قومه فيتابعوه، ليقيم بهم رياسته، ولم ير الحق معه، بل رأى الحق مع موسى، وجحد به مستيقنًا له.

وكذب في قوله: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾ فإن هذا قلب للحق، فلو أمرهم باتباعه اتباعًا مجردًا على كفره وضلاله، لكان الشر أهون، ولكنه أمرهم باتباعه، وزعم أن في اتباعه اتباع الحق وفي اتباع الحق، اتباع الضلال.

أعود قائلًا: ويستمر هذا الرجل المؤمن، مؤمن آل فرعون، قريب فرعون، وقيل: ابن عمه، يستمر في دعوته وتوجيهه وتذكيره وموعظته وتحذيره قائلًا: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر: ٣٠-٣٣].

والمعنى: يا قوم إني أخاف عليكم إن كذبتم موسى عليه السلام ورددتم ما جاءكم به وتوعدتموه، أن يحل بكم ما حل بالأمم من قبلكم بالأحزاب الذين تحزبوا على أنبيائهم وكفروا بربهم فانتقم الله منهم، أخاف عليكم أن يحل بكم مثل ما حلَّ بهم، مثل الصنيع الذي حل بقوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لما كذبوا أنبياءهم، فربنا سبحانه وتعالى لا يريد ظلمكم بل يرسل إليكم رسلًا يحذرونكم وينذرونكم ما قبلوا ما جاءكم به موسى صلى الله عليه وسلم.

ثمَّ حذرهم من البعث وما فيه من العقاب للمكذبين، فقال مُحذرًا: ويا قوم إني أخاف عليكم عذاب يوم التناد - يوم القيامة - يوم ينادي بعض الخلق بعضًا مستغيثين صارخين، أو معاتبين لائمين أو غير ذلك من أسباب النداءات.

يوم تولون مدبرين، يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه، يوم تولون هاربين

تظنون أنكم ستجدون ملجأً أو محيصًا أو مهربًا فلا ملجأ ولا محيص ولا مهرب.

ومن يصرف الله عن طريق الهداية في الدنيا، فلن تجد له هاديًا يهديه.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وقال المؤمن من آل فرعون وملئه: يا قوم إني أخاف عليكم بقتلكم موسى إن قتلتموه مثل يوم الأحزاب الذين تحزبوا على رسل الله نوح وهود وصالح، فأهلكهم الله بتجرئهم عليه، فيهلككم كما أهلكهم.

وقوله: ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ يقول: يفعل ذلك بكم فيهلككم مثل سنته في قوم نوح وعاد وثمود وفعله بهم.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ يعني قوم إبراهيم، وقوم لوط، وهم أيضًا من الأحزاب.

وقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ يقول تعالى ذكره مخبرًا عن قيل المؤمن من آل فرعون لفرعون وملئه: وما أهلك الله هذه الأحزاب من هذه الأمم ظلمًا منه لهم بغير جرم اجترموه بينهم وبينه، لأنه لا يريد ظلم عباده، ولا يشاؤه، ولكنه أهلكهم بإجرامهم وكفرهم به، وخلافهم أمره.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هذا إخبار من الله، عَزَّوَجَلَّ، عن هذا الرجل الصالح، مؤمن آل فرعون: أنه حذر قومه بأس الله في الدنيا والآخرة فقال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾﴾ أي: الذين كذبوا رسل الله في قديم الدهر، كقوم نوح وعاد وثمود، والذين من بعدهم من الأمم المكذبة، كيف حل بهم بأس الله، وما رده عنهم راد، ولا صده عنهم صاد.

﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾ أي: إنما أهلكهم الله بذنوبهم، وتكذيبهم رسله، ومخالفتهم أمره. فأنفذ فيهم قدره.

وهنا سؤال وجوابه: ما المراد بيوم التناد؟ ولماذا أطلق عليه يوم التناد؟

المراد بيوم التناد يوم القيامة، وأطلق عليه يوم التناد لنداء الناس بعضهم بعضًا فأحيانًا ينادي أهل النار أهل الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله، وأحيانًا ينادي أهل الجنة أهل النار ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ [الأعراف: ٤٤]، وأحيانًا ينادي الشخص أباه أو أخاه أو قريبه أو حميمه، إلى غير ذلك من صور النداءات التي تحمل توبيخًا أحيانًا وتحمل تبكيتًا أحيانًا أُخر وتحمل لومًا واستغاثة إلى غير ذلك، والله أعلم.

لفتةٌ إلى منقبةٍ لأبي بكر الصديق رضي الله عنه

ذكر بعض العلماء منقبةً للصديق أبي بكر رضي الله عنه عند تفسير الآية الكريمة:

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ..﴾.

هذه المنقبة حاصلها أن أبا بكر جهر بإيمانه ودافع عن رسوله ﷺ.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون وهي قوله: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾، اللهم إلا ما رواه البخاري [1] في صحيحه حيث قال:

حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا الأوزاعي، حدثني يحيى ابن أبي كثير، حدثني محمد بن إبراهيم التيمي، حدثني عروة بن الزبير قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص: أخبرني بأشد شيء مما صنعه المشركون برسول الله ﷺ قال: بينا رسول الله ﷺ يصلي بفناء الكعبة إذ أقبل عُقْبة بن أبي مُعَيط، فأخذ بمَنْكب رسول الله ﷺ ولَوَى ثوبه في عنقه، فخنقه خنقًا شديدًا، فأقبل أبو بكر، رضي الله عنه، فأخذ بمنكبه ودَفَع عن النبي ﷺ ثم قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾.

---

(١) البخاري (٤٨١٥).

مؤمن آل فرعون يواصل التذكير

❁ ويستمر مؤمن آل فرعون مُذكِّرًا مُحذِّرًا قائلًا: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾ [غافر: ٣٤].

والمعنى - والله تعالى أعلم- أن مؤمن آل فرعون يعظ قومه ويذكر قومه فيقول لهم: ولقد جاء يوسف ﷺ إلى أسلافكم وأجدادكم يا أهل مصر، جاءهم بالحجج الواضحات الدالة على نبوته وصدقه والتي فيها تأويله للرؤيا، والتي فيها ما ذكره في السجن إذ قال: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ..﴾ [يوسف: ٣٧]، إلى غير ذلك من الآيات، فما زال أسلافكم في تشكك من أمره ومن أمر رسالته حتى إذا مات يوسف ﷺ قالوا: لن يبعث الله رسولًا، واطمئنوا إلى دوام مملكتهم فقد كانوا يتوقعون زوال مملكتهم على يد يوسف ﷺ، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ أي: كذلك، وكما أضل الله أولئك، فيضل من هو مكثر من المعاصي والشرك والكبائر متشكك في أمر الله ووحدانيته.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ولقد جاءكم يوسف بن يعقوب يا قوم من قبل موسى بالواضحات من حجج الله.

وقوله: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ يقول: فلم تزالوا مرتابين فيما أتاكم به يوسف من عند ربكم غير موقني القلوب بحقيقته ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ﴾ يقول: حتى إذا مات يوسف قلتم أيها القوم: لن يبعث الله من بعد يوسف إليكم رسولًا بالدعاء إلى الحق ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ يقول: هكذا يصد الله عن إصابة الحق وقصد السبيل من هو كافر به مرتاب، شاك في حقيقة أخبار رسله.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ يعني: أهل مصر، قد بعث الله فيهم رسولًا من قبل موسى، وهو يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ كان عزيز أهل مصر، وكان رسولا يدعو إلى الله أمته القبط، فما أطاعوه تلك الطاعة إلا لمجرد الوزارة والجاه الدنيوي؛ ولهذا قال: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ﴾ أي: يئستم فقلتم طامعين: ﴿لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ﴾ وذلك لكفرهم وتكذيبهم ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ أي: كحالكم هذا يكون حال من يضله الله لإسرافه في أفعاله وارتياب قلبه.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ﴾ أي أسلافكم كانوا في شك ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ﴾ أي من يدعي الرسالة ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ﴾ أي مثل ذلك الضلال ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ مشرك ﴿مُّرْتَابٌ﴾ شاك في وحدانية الله تعالى.

تحذير المجادلين في آيات الله بغير علمٍ

❁ ويستمر مؤمن آل فرعون في تحذير المجادلين بغير علم وبغير سلطان قائلاً: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾.

والمعنى، والله تعالى أعلم، هؤلاء الذين يجادلون في آيات الله، يخاصمون فيها ويدفعونها بالباطل وبدون حجة أتتهم من عند الله، كبر جدالهم مقتًا عند الله، استجلب لهم جدالهم هذا بالباطل المقت الشديد والبغض الشديد والذمّ الشديد من ربهم عَزَّوَجَلَّ، وكذا استجلب لهم مقت أهل الإيمان، فهكذا يختم الله

على قلب كل متكبر على عبادة الله عَزَّوَجَلَّ، متعاظم على اتباع الحق، مسرف على نفسه بقتل العباد وأذاهم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره مخبرًا عن قيل المؤمن من آل فرعون: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ ﴾ فقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ مردود على ﴿مَنۡ﴾ في قوله: ﴿مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ﴾ . وتأويل الكلام: كذلك يضل الله أهل الإسراف والغلو في ضلالهم بكفرهم بالله، واجترائهم على معاصيه، المرتابين في أخبار رسله، الذين يخاصمون في حججه التي أتتهم بها رسله ليدحضوها بالباطل من الحجج ﴿بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ﴾ يقول: بغير حجة أتتهم من عند ربهم يدفعون بها حقيقة الحجج التي أتتهم بها الرسل؛ و﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ إذا كان معنى الكلام ما ذكرنا في موضع نصب ردًّا على ﴿مَنۡ﴾.

وقوله: ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ يقول: كبر ذلك الجدال الذي يجادلونه في آيات الله مقتًا عند الله، ﴿وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ ﴾ بالله؛ وإنما نصب قوله: ﴿مَقۡتًا﴾ لما في قوله: ﴿كَبُرَ﴾ من ضمير الجدال، وهو نظير قوله:﴿ كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ ﴾ [الكهف: ٥]، فنصب كلمة من نصبها، لأنه جعل في قوله: ﴿كَبُرَتۡ﴾ ضمير قولهم: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا ﴾ [الكهف: ٤] وأما من لم يضمر ذلك فإنه رفع الكلمة.

وقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾ يقول: كما طبع الله على قلوب المسرفين الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم، كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر على الله أن يوحده، ويصدق رسله. جبار: يعني متعظم عن اتباع الحق.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ثم قال: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ﴾ أي: الذين

يدفعون الحق بالباطل، ويجادلون الحجج بغير دليل وحجة معهم من الله، فإن الله يمقت على ذلك أشد المقت؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: والمؤمنون أيضًا يُبغضُون من تكون هذه صفته، فإن من كانت هذه صفته، يطبع الله على قلبه، فلا يعرف بعد ذلك معروفًا، ولا ينكر منكرًا؛ ولهذا قال: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ﴾ أي: على اتباع الحق ﴿جَبَّارٍ﴾.

فرعون يتمادي في الكبر والعنادِ والتحدي

ويتمادي فرعون في كبره وعِنادِهِ واستكبارِهِ وغيِّه وضلالهِ فيقول لوزيره – وزير السوء – هامان بعد استماعه إلى موعظة الرجل المؤمن، يقول: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧].

قال ابن كثير: يقول فرعون: يا هامان ابن لي قصرًا عاليًا شاهقًا لعلي أسلك الأسباب والطرق التي توصلني إلى إله موسى الذي يدعي أنه له إله مع ظني القطعي وتأكدي أن موسى كاذب في دعواه، وهكذا زين الشيطان لفرعون عمله وحسنه في عينه وقلبه وصرف عن طريق الحق إلى طريق الباطل، ودبَّر وتآمر وما تدبيره وما كيده إلا في ضياع وخسران.

قال ابن كثير: يقول تعالى مخبرًا عن فرعون، وعتوه، وتمرده، وافترائه في تكذيبه موسى عليه السلام أنه أمر وزيره هامان أن يبني له صرحًا، وهو: القصر العالي المنيف الشاهق. وكان اتخاذه من الآجرّ المضروب من الطين المشوي، كما قال: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا﴾ [القصص: ٣٨]، ولهذا قال إبراهيم النخعي: كانوا يكرهون البناء بالآجر، وأن يجعلوه في قبورهم. رواه ابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ قال سعيد بن جبير، وأبو صالح: أبواب السموات. وقيل: طرق السموات ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ﴾، وهذا من كفره وتمرده، أنه كذب موسى في أن الله عَزَّوَجَلَّ، أرسله إليه، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ﴾ أي: بصنيعه هذا الذي أراد أن يوهم به الرعية أنه يعمل شيئًا يتوصل به إلى تكذيب موسى عليه السلام؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: يعني إلا في خسار.

مؤمن آل فرعون يواصل النصح والتذكير

قال الله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٣٨ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ٣٩ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٤٠ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ٤١ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ٤٢ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ٤٣ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٤٤ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ٤٥ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر: ٣٨-٤٦]

معاني مفردات الآيات المباركات:

الكلمة	معناها
﴿أَهْدِكُمْ﴾	أرشدكم - أدلكم
﴿سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾	طريق الحق والصواب - الطريق الموصل إلى الجنة
﴿مَتَٰعٌ﴾	ما يستمتع به ثم يزول
﴿دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾	دار الاستقرار وعدم الزوال وعدم الانتقال
﴿لَا جَرَمَ﴾	حقًّا
﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ﴾	ليس له دعاء - لا يدعو
﴿مَرَدَّنَآ﴾	مرجعنا - حسابنا يوم الحساب
﴿ٱلْمُسْرِفِينَ﴾	المشركون - مرتكبو الكبائر والمعاصي والآثام
﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ﴾	أسلِّم أمري - أستعين بالله على أموري
﴿فَوَقَىٰهُ﴾	فصرف عنه
﴿سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾	المكر السيئ الذي مكروه - التدبير السيئ الذي دبَّروه له
﴿وَحَاقَ﴾	حلَّ - نزل
﴿غُدُوًّا﴾	صباحًا
﴿وَعَشِيًّا﴾	مساءً

وعن المعنى، فيواصل مؤمن آل فرعون الذي كان يكتم إيمانه يوجه النصح صريحًا إلى قومه قائلًا لهم: يا قوم اتبعون فيما دعوتكم إليه من الحق، فأنا أدلكم على طريق الحق والصواب الموصل إلى جنة الله عَزَّوَجَلَّ إلى مرضاته ليس كما يقول فرعون إذ قال: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾، ثم يواصل مؤمن آل فرعون تذكيره بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾ أي: ما هي إلا متاع يستمتع به زمنًا قصيرًا ثم تزول ويزول متاعها، أما الآخرة ففيها الاستقرار والخلود وعدم الخروج، والمراد بالآخرة هنا الجنة أو النار.

وقوله: ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾، حاصله: من عمل بالمعاصي في الدنيا فيجازى بالسيئة سيئة أما الشرك فإنه يحبط الأعمال.

﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾أي: يرزقون فيها بلا تحديد، كيف شاء الله أي كيفما شاءوا رزقهم الله عَزَّوَجَلَّ بمنه وكرمه ويواصل مؤمن آل فرعون نصحه وتذكيره قائلاً: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾[غافر:٤١]

أدعوكم إلى أسباب النجاة وأرشدكم إليها وأدلكم عليها.

أدعوكم إلى النجاة من عذاب الله وغضبه وعقابه.

وذلك بالإيمان به واتباع رسوله.

وفي ذات الوقت تقابلون دعوتي بدعوتكم لي إلى النار وإلى طرائقها وأسبابها.

أهكذا يُقابل المعروف! تقابلونه بمنكرٍ من القول وزورًا!!

أهكذا يُقابل الإحسان، تقابلونه بجحودٍ وإنكار!!

تقابلون الحق بالباطل!!

تقابلون الإيمان بالكفر!!

إنكم تدعونني للكفر بالله واتخاذ شريك له، وليس عندي أي علم بأن هذه الشركاء تنفع أو تضر إنما علمي عنها أنها لا تنفع ولا تضر.

تدعونني للكفر والشرك في الوقت الذي أدعوكم فيه إلى طريق الله عَزَّوَجَلَّ، وهو العزيز الذي لا يغلب الغفار لمن تاب ورجع إليه.

فحقًّا إن هذه الأصنام والأوثان التي تدعونني إلى عبادتها ليس لها دعاء أصلًا فهي لا تدعو لكونها جمادات لا تفهم ولا تعي ولا تتكلم فمن ثَمَّ لا تدعو لعابديها لا في دنيا ولا في آخرة، وقوله: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ ﴾ مرجعنا إلى الله، وأن الذين أسرفوا على أنفسهم بكذبهم على الله وبشركهم بالله وباقترافهم المعاصي هم أهل النار حقًّا.

هذا، وبعد أن ذكَّرهم مؤمن آل فرعون بالذي ذكَّرهم به، وبيَّن لهم ما ينتظرهم في آخرتهم، قال لهم: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [غافر:٤٤].

أي: سيأتي يوم تتحققون فيه من صدق مقولتي وصدق تذكرتي، وهو يوم القيامة أما في دنياي فإني قد أسلمت أمري لله عَزَّوَجَلَّ وتركت أمري له يقضي فيه، والله ليس بغافل عما يصنعه العباد.

❁ فماذا كان من أمر هذا الرجل المؤمن، بعد أن نصح وذكَّر؟!!

هل ضرَّه النصح بشيء؟ كلا فلن يصيبه إلا ما كتبه الله له قال تعالى: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر:٤٥].

أي: فسلمه الله وحفظه من كيدهم وتدبيرهم ونزل بآل فرعون ما ساءهم من عذاب الله.

لقد نزل بهم أسوأ العذاب!!

عذابٌ لا يفارقهم ولا يتركهم إذ هي النار في البرزخ – في القبور – وكذا يوم القيامة لهم أشد العذاب وأسوأ العذاب.

فقوله تعالى: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾.

لأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أن أرواح آل فرعون في أجواف طير سود تغدو وتروح على النار، وذلك عرضها.

الثاني: أنهم يرون مقاعدهم من النار صباحًا ومساءً، يقال لهم: هذه منازلكم توبيخًا ونقمة وصغارًا لهم.

وفي حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل

النار فمن أهل النار؛ فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله - عَزَّوَجَلَّ - إليه يوم القيامة»[(١)].

أخرجاه في الصحيحين من حديث مالك به.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فإن أرواحهم تعرض على النار صباحًا ومساءً إلى قيام الساعة، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار؛ ولهذا قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: أشده ألمًا وأعظمه نكالًا. وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور، وهي قوله: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره مخبرًا عن المؤمن بالله من آل فرعون: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ﴾ من قوم فرعون لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾﴾ يقول: إن اتبعتموني فقبلتم مني ما أقول لكم، بينت لكم طريق الصواب الذي ترشدون إذا أخذتم فيه وسلكتموه وذلك هو دين الله الذي ابتعث به موسى. يقول: ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾ يقول لقومه: ما هذه الحياة الدنيا العاجلة التي عجلت لكم في هذه الدار إلا متاع تستمتعون بها إلى أجل أنتم بالغوه، ثم تموتون وتزول عنكم ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾ يقول: وإن الدار الآخرة، وهي دار القرار التي تستقرون فيها فلا تموتون ولا تزول عنكم، يقول: فلها فاعملوا، وإياها فاطلبوا.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

---

(١) البخاري (١٣٧٩)، ومسلم (٢٨٦٦).

يقول: من عمل بمعصية الله في هذه الحياة الدنيا، فلا يجزيه الله في الآخرة إلا سيئة مثلها، وذلك أن يعاقبه بها ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ يقول: ومن عمل بطاعة الله فى الدنيا، وائتمر لأمره، وانتهى فيها عما نهاه عنه من رجل أو امرأة، وهو مؤمن بالله ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ يقول: فالذين يعملون ذلك من عباد الله يدخلون في الآخرة الجنة.

وقال الطبري في تفسير قول مؤمن آل فرعون لقومه: ﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾﴾.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: يقول تعالى ذكره مخبرًا عن قيل هذا المؤمن لقومه من الكفرة: ﴿مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾ من عذاب الله وعقوبته بالإيمان به، واتباع رسوله موسى، وتصديقه فيما جاءكم به من عند ربه ﴿وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾﴾ يقول: وتدعونني إلى عمل أهل النار.

وقوله: ﴿تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾ يقول: وأشرك بالله في عبادته أوثانًا، لست أعلم أنه يصلح لي عبادتها وإشراكها فى عبادة الله، لأن الله لم يأذن لي في ذلك بخبر ولا عقل.

وقوله: ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾ يقول: وأنا أدعوكم إلى عبادة العزيز في انتقامه ممن كفر به، الذي لا يمنعه إذا انتقم من عدو له شيء، الغفار لمن تاب إليه بعد معصيته إياه، لعفوه عنه، فلا يضره شيء مع عفوه عنه، يقول: فهذا الذي هذه الصفة صفته فاعبدوا، لا ما لا ضر عنده ولا نفع.

وقال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول: حقًّا أن الذي تدعونني إليه من الأوثان، ليس له دعاء في الدنيا ولا في الآخرة، لأنه جماد لا ينطق، ولا يفهم شيئًا.

وقوله: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يقول: وأن مرجعنا ومنقلبنا بعد مماتنا إلى الله

﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ يقول: وإن المشركين بالله المتعدين حدوده، القتلة للنفوس التي حرم الله قتلها، هم أصحاب نار جهنم عند مرجعنا إلى الله.

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل على اختلاف منهم في معنى المسرفين في هذا الموضع، فقال بعضهم: هم سفاكو الدماء بغير حقها.

وقال آخرون: هم المشركون.

وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وإنما اخترنا في تأويل ذلك في هذا الموضع ما اخترنا، لأن قائل هذا القول لفرعون وقومه، إنما قصد فرعون به لكفره، وما كان همَّ به من قتل موسى، وكان فرعون عاليًا عاتيًا في كفر. سفَّاكًا للدماء التي كان محرمًا عليه سفكها، وكل ذلك من الإسراف، فلذلك اخترنا ما اخترنا من التأويل في ذلك.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿لَا جَرَمَ﴾ يقول: بلى، إن الذي تدعونني إليه من الأصنام والأنداد ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

قال مجاهد: الوثن ليس بشيء.

وقال قتادة: يعني: الوثن لا ينفع ولا يضر.

وقال السدي: لا يجيب داعيه، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥-٦] ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤]

وقوله: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: في الدار الآخرة، فيجازي كلًّا بعمله؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي: خالدين فيها بإسرافهم، وهو شركهم بالله.

وقال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره مخبرًا عن قيل المؤمن من آل فرعون لفرعون وقومه: فستذكرون أيها القوم إذا عاينتم عقاب الله قد حل بكم، ولقيتم ما لقيتموه صدق ما أقول، وحقيقة ما أخبركم به من أن المسرفين هم أصحاب النار.

وقوله: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ يقول: وأسلم أمري إلى الله، وأجعله إليه وأتوكل عليه، فإنه الكافي من توكل عليه.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ يقول: إن الله عالم بأمور عباده، ومَن المطيع منهم، والعاصي له، والمستحق جميل الثواب، والمستوجب سيئ العقاب.

وقوله: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ﴾ يقول تعالى ذكره: فدفع الله عن هذا المؤمن من آل فرعون بإيمانه وتصديق رسوله موسى، مكروه ما كان فرعون ينال به أهل الخلاف عليه من العذاب والبلاء، فنجاه منه.

وقوله: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ يقول: وحل بآل فرعون ووجب عليهم؛ وعني بآل فرعون في هذا الموضع أتباعه وأهل طاعته من قومه.

وعني بقوله: ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾: ما ساءهم من عذاب الله، وذلك نار جهنم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول المؤمن لقومه ممن تمرد وطغى وآثر الحياة الدنيا، ونسي الجبار الأعلى، فقال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ لا كما كذب فرعون في قوله: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

ثم زهدهم في الدنيا التي آثروها على الأخرى، وصدتهم عن التصديق برسول الله موسى، فقال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾ أي: قليلة زائلة فانية عن قريب تذهب وتضمحل، ﴿وَإِنَّ ٱلْـَٔاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ أي: الدار التي لا زوال لها، ولا انتقال منها ولا ظعن عنها إلى غيرها، بل إما نعيم

وإما جحيم، ولهذا قال ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ أي: واحدة مثلها ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أي: لا يتقدر بجزاء بل يثيبه الله، ثوابًا كثيرًا لا انقضاء له ولا نفاد.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول لهم المؤمن: ما بالي أدعوكم إلى النجاة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له وتصديق رسوله الذي بعثه ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ أي: على جهل بلا دليل ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴾ أي: هو في عزته وكبريائه يغفر ذنب من تاب إليه.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ﴾ أي: سوف تعلمون صدق ما أمرتكم به ونهيتكم عنه، ونصحتكم ووضحت لكم، وتتذكرونه، وتندمون حيث لا ينفعكم الندم، ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي: وأتوكل على الله وأستعينه، وأقاطعكم وأباعدكم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ أي: هو بصير بهم، فيهدي من يستحق الهداية، ويضل من يستحق الإضلال، وله الحجة البالغة، والحكمة التامة، والقدر النافذ.

وقوله: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ﴾ أي: في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فنجاه الله مع موسى عليه السلام، وأما في الآخرة فبالجنة ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴾ وهو: الغرق في اليم، ثم النقلة منه إلى الجحيم.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى : ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ ﴾ أي يتمتع بها قليلًا ثم تنقطع وتزول ﴿وَإِنَّ ٱلْـَٔاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴾ أي الاستقرار والخلود ومراده بالدار الآخرة الجنة والنار لأنهما لا يفنيان بين ذلك بقوله: ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً ﴾

يعني الشرك ﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ وهو العذاب ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ قال ابن عباس: يعني لا إله إلا الله ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ مصدق بقلبه لله وللأنبياء (فأولئك يُدخلون الجنة) بضم الياء على ما لم يسم فاعله، وهي قراءة ابن كثير وابن محيصن وأبي عمرو ويعقوب وأبي بكر عن عاصم يدل عليه ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ الباقون ﴿يَدْخُلُونَ﴾ بفتح الياء.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾ أي: إلى طريق الإيمان الموصِّل إلى الجنان ﴿وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ بيَّن أن ما قال فرعون من قوله: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ سبيل الغي عاقبته النار وكانوا دعوه إلى اتباعه ولهذا قال: ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ﴾ وهو فرعون.

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله: ﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾ بما قلت لكم ﴿وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾﴾ بترك اتباع نبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ثم فسر ذلك فقال: ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أنه يستحق أن يعبد من دون الله، والقول على الله بلا علم من أكبر الذنوب وأقبحها، ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ﴾ الذي له القوة كلها، وغيره ليس بيده من الأمر شيء. ﴿ٱلْغَفَّٰرِ﴾ الذي يسرف العباد على أنفسهم ويتجرؤون على مساخطه ثم إذا تابوا وأنابوا إليه، كفر عنهم السيئات والذنوب، ودفع موجباتها من العقوبات الدنيوية والأخروية.

﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقًّا يقينًا ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: لا يستحق الدعوة إليه، والحث على اللجء إليه، في الدنيا ولا في الآخرة، لعجزه ونقصه، وأنه لا يملك نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياة، ولا نشورًا.

﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ تعالى فسيجازي كل عامل بعمله. ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ وهم الذين أسرفوا على أنفسهم بالتجرؤ على ربهم بمعاصيه والكفر به، دون غيرهم. فلما نصحهم وحذرهم وأنذرهم ولم يطيعوه ولا وافقوه قال لهم: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ من هذه النصيحة، وسترون مغبة عدم قبولها حين يحل بكم العقاب، وتحرمون جزيل الثواب.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: ألجأ إليه وأعتصم، وألقي أموري كلها لديه، وأتوكل عليه في مصالحي ودفع الضرر الذي يصيبني منكم أو من غيركم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ يعلم أحوالهم وما يستحقون، يعلم حالي وضعفي فيمنعني منكم ويكفيني شركم، ويعلم أحوالكم فلا تتصرفون إلا بإرادته ومشيئته، فإن سلطكم عليَّ، فبحكمة منه تعالى، وعن إرادته ومشيئته صدر ذلك.

﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ أي: وقى الله القويّ، ذلك الرجل المؤمن الموفق، عقوبات ما مكر فرعون وآله له، ومن إرادة إهلاكه وإتلافه، لأنه بادأهم بما يكرهون، وأظهر لهم الموافقة التامة لموسى عليه السلام، ودعاهم إلى ما دعاهم إليه موسى، وهذا أمر لا يحتملونه وهم الذين لهم القدرة إذ ذاك، وقد أغضبهم واشتد حنقهم عليه، فأرادوا به كيدًا فحفظه الله من كيدهم ومكرهم وانقلب كيدهم ومكرهم، على أنفسهم، ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾ أغرقهم الله تعالى في صبيحة واحدة عن آخرهم.

وفي البرزخ: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ فهذه العقوبات الشنيعة، التي تحل بالمكذبين لرسل الله، المعاندين لأمره.

ملخص ما ذكره الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ

في كتابه قصص الأنبياء عن مؤمن آل فرعون

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: وهذا الرجل هو ابن عم[(١)] فرعون، وكان يكتم إيمانه من قومه خوفًا منهم على نفسه.

ثم ذكر ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ بعض الآثار الضعيفة وذكر أيضًا اسم هذا الرجل بما لا مستند له[(٢)] ثم قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

والمقصود أن هذا الرجل كان يكتم إيمانه، فلما هَمَّ فرعون - لعنه الله- بقتل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعزم على ذلك وشاور ملأه فيه خاف هذا المؤمن على موسى، فتلطف في ردِّ فرعون بكلام جمع فيه الترغيب والترهيب، فقال على وجه المشورة والرأي.

وقد ثبت في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»[(٣)]، وهذا من أعلى مراتب هذا المقام، فإن فرعون لا أشد جَوْرًا مِنْهُ، وَهَذَا الْكَلَامُ لَا أَعْدَلَ مِنْهُ! لأنه فِيهِ عصمَة نَبِي وَيحْتَمل أَنه كاشفهم بِإِظْهَارِ إِيمَانِهِ، وَصَرَّحَ لَهُمْ بِمَا كَانَ يَكْتُمُهُ.

وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

قَالَ: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ أَيْ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ قَالَ رَبِّيَ اللهُ فَمثل

---

(١) وكونه ذكر أن هذا الرجل ابن عم فرعون يحتاج إلى دليل، والذي في الكتاب العزيز ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ فقد يكون ابن عمه وقد يكون من أقربائه عمومًا.

(٢) ولا يصح في تسميته خبرٌ من الكتاب أو السنة.

(٣) حسن بمجموع طرقه وأخرجه أبو داود (٤/ ٤٣٤٤) والترمذي (٤/ ٢١٧٤) وابن ماجه (٤٠١١) وفي مسند عطية العوفي وهو ضعيف، وانظر بعض شواهده عند أحمد (٣/ ١٩) والحاكم (٤/ ٥٠٥) وأحمد (٥/ ٢٥١، ٢٥٦) والنسائي (٧/ ١٦١) والبيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٧٥٧١).

هَذَا لَا يُقَابل بِهَذَا، بل بالإكرام والاحترام أَو الْمُوَادَعَة وَترك الانتقام.

يَعْنِي لأنه ﴿قَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أَيْ: بِالْخَوَارِقِ الَّتِي دَلَّتْ عَلَى صَدْقِهِ فِيمَا جَاءَ بِهِ عَمَّنْ أَرْسَلَهُ، فَهَذَا إِنْ وَادَعْتُمُوهُ كُنْتُم فِي سَلامَة، لأنه ﴿إِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ وَلَا يضركم ذَلِك ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا﴾ وَقَدْ تَعَرَّضْتُمْ لَهُ ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾، أَيْ: وَأَنْتُمْ تُشْفِقُونَ أَنْ يَنَالَكُمْ أَيْسَرُ جَزَاءٍ مِمَّا يَتَوَعَّدُكُمْ بِهِ، فَكَيْفَ بِكُمْ إِنَّ حَلَّ جَمِيعُهُ عَلَيْكُمْ؟ وَهَذَا الْكَلَامُ فِي هَذَا الْمَقَامِ، مِنْ أَعْلَى مَقَامَاتِ التَّلَطُّفِ وَالِاحْتِرَازِ وَالْعَقْلِ التَّامِّ.

وَقَوله: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يُحَذِّرُهُمْ أَنَّ يَسْلُبُوا هَذَا الْمُلْكَ الْعَزِيزَ، فَإِنَّهُ مَا تَعَرَّضَتِ الدُّوَلُ لِلدِّينِ إِلَّا سُلِبُوا مُلْكَهُمْ وَذَلُّوا بَعْدَ عِزِّهِمْ!.

وَكَذَا وَقْعَ لِآلِ فِرْعَوْنَ، مَا زَالُوا فِي شَكٍّ وَرَيْبٍ، وَمُخَالَفَةٍ وَمُعَانَدَةٍ لِمَا جَاءَهُمْ مُوسَى بِهِ حَتَّى أَخْرَجَهُمُ اللهُ مِمَّا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْمُلْكِ وَالْأَمْلَاكِ وَالدُّورِ وَالْقُصُورِ، وَالنِّعْمَةِ وَالْحُبُورِ، ثُمَّ حُوِّلُوا إِلَى الْبَحْرِ مُهَانِينَ، وَنُقِلَتْ أَرْوَاحُهُمْ بَعْدَ الْعُلُوِّ وَالرِّفْعَةِ إِلَى أَسْفَلِ السافلين.

وَلِهَذَا قَالَ هَذَا الرجل الْمُؤمن الْمُصدق، الْبَارُّ الرَّاشِدُ، التَّابِعُ لِلْحَقِّ، النَّاصِحُ لِقَوْمِهِ، الْكَامِلُ الْعقل: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أَيْ: عَالِينَ عَلَى النَّاسِ حَاكِمِينَ عَلَيْهِمْ، ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ أَيْ: لَوْ كُنْتُمْ أَضْعَافَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنَ الْعَدَدِ وَالْعُدَّةِ، وَالْقُوَّةِ وَالشِّدَّةِ لَمَا نَفَعَنَا ذَلِكَ، وَلَا رَدَّ عَنَّا بَأْسَ مَالِكِ الْمَمَالِكِ.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ أَيْ: فِي جَوَابِ هَذَا كُلِّهِ: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ أَيْ: مَا أَقُولُ لَكُمْ إِلَّا مَا عِنْدِي ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

وَكَذَبَ فِي كُلٍّ مِنْ هَذَيْنِ الْقَوْلَيْنِ وَهَاتَيْنِ المقدمتين، فَإِنَّهُ قد كَانَ يتحقَّق فِي بَاطِنِهِ وَفِي نَفْسِهِ أَنَّ هَذَا الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى مِنْ عِنْدِ اللهِ لَا مَحَالَةَ، وَإِنَّمَا كَانَ

يُظْهِرُ خِلَافَهُ بَغْيًا وَعُدْوَانًا وَعُتُوًّا وَكُفْرَانًا.

قَالَ اللهُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ مُوسَى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء: ١٠٢-١٠٤].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٣، ١٤].

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩] فَقَدْ كَذَبَ أَيْضًا، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَلَى رَشَادٍ مِنَ الْأَمْرِ، بَلْ كَانَ عَلَى سَفَهٍ وضلال وخبل وخيال، فَكَانَ أَوَّلًا مِمَّنْ يَعْبُدُ الْأَصْنَامَ وَالْأَمْثَالَ، ثُمَّ دَعَا قَوْمَهُ الْجَهَلَةَ الضُّلَّالَ إِلَى أَنِ اتَّبَعُوهُ وَطَاوَعُوهُ وَصَدقُوهُ، فِيمَا زعم من الْكفْر والمحال، فِي دَعْوَاهُ أَنَّهُ رَبٌّ، تَعَالَى اللهُ ذُو الْجلَال!

ثم قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يُحَذِّرُهُمْ وَلِيُّ[1] اللهِ إِنْ كَذَّبُوا بِرَسُولِ اللهِ مُوسَى أَنْ يَحِلَّ بِهِمْ مَا حَلَّ بِالْأُمَمِ من قبلهم، من النقمات والمثلات، مِمَّا تَوَاتر عِنْدهم وَعند غَيرهم، مِمَّا حَلَّ بِقَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ إِلَى زمانهم ذَلِك، مِمَّا أَقَامَ بِهِ الْحُجَجَ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ قَاطِبَةً، فِي صدق مَا جَاءَت بِهِ الأنبياء، لما أَنْزَلَ مِنَ النِّقْمَةِ بِمُكَذِّبِيهِمْ مِنَ الْأَعْدَاءِ، وَمَا أَنْجَى اللهُ مَنِ اتَّبَعَهُمْ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ وَخَوَّفَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهُوَ يَوْمُ التَّنَادِ، أَيْ حِينَ يُنَادِي النَّاس بَعضهم بَعْضًا، حِين يولون إِنْ قَدَرُوا عَلَى ذَلِكَ، وَلَا إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: ١٠-١٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ

(١) والمراد به مؤمن آل فرعون.

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: ٣٣-٣٦].

وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ بِتَشْدِيدِ الدَّالِ، أَيْ: يَوْمَ الْفِرَارِ.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ يَوْمَ يُحِلُّ اللهُ بِهِمُ الْبَأْسَ، فَيَوَدُّونَ الْفِرَارَ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٢، ١٣].

ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ عَنْ نُبُوَّةِ يُوسُفَ فِي بِلَادِ مصر، وَمَا كَانَ مِنْهُ مِنَ الْإِحْسَانِ إِلَى الْخَلْقِ فِي دُنْيَاهُمْ وَأُخْرَاهُمْ.

وَهَذَا مِنْ سُلَالَتِهِ وَذُرِّيَّتِهِ، وَيَدْعُو النَّاسَ إِلَى تَوْحِيدِ اللهِ وَعِبَادَتِهِ، وَأَنْ لَا يُشْرِكُوا بِهِ أَحَدًا مِنْ بَرِّيَّتِهِ، وَأَخْبَرَ عَنْ أهل الديار المصرية فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَأَنَّ مِنْ سَجِيَّتِهِمُ التَّكْذِيبَ بِالْحَقِّ وَمُخَالَفَةَ الرُّسُلِ.

وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ أَيْ: وَكَذَّبْتُمْ فِي هَذَا.

وَلِهَذَا قَالَ: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾ أَيْ: يردون حُجَجَهُ وَبَرَاهِينَهُ وَدَلَائِلَ تَوْحِيدِهِ، بِلَا حُجَّةٍ وَلَا دَلِيلٍ عِنْدَهُمْ مِنَ اللهِ، فَإِنَّ هَذَا أَمْرٌ يَمْقُتُهُ اللهُ غَايَةَ الْمَقْتِ، أَيْ يُبْغِضُ مَنْ تَلَبَّسَ بِهِ مِنَ النَّاسِ، وَمَنِ اتَّصَفَ بِهِ مِنَ الْخَلْقِ، ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ قرئ بالإضافة والنعت، وَكِلَاهُمَا مُتَلَازِمٌ: أَيْ: هَكَذَا إِذَا خَالَفَتِ الْقُلُوبُ الْحَقَّ - وَلَا تُخَالِفُهُ إِلَّا بِلَا بُرْهَانٍ - فَإِنَّ الله يطبع عَلَيْهَا، أَيْ: يختم عَلَيْهَا بِمَا فِيهَا.

ويواصل ابن كثير قوله:

يقول تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ

عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧].

كَذَّبَ فِرْعَوْنُ مُوسَى عليه السلام فِي دَعْوَاهُ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَهُ، وَزَعَمَ فِرْعَوْنُ لِقَوْمِهِ مَا كَذَّبَهُ وَافْتَرَاهُ فِي قَوْلِهِ لَهُمْ: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ .

[القصص: ٣٨]

وَقَالَ هَاهُنَا: ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ أَيْ: طُرُقَهَا وَمَسَالِكَهَا ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ﴾ وَيَحْتَمِلُ هَذَا مَعْنَيَيْنِ: أَحَدُهُمَا: وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا فِي قَوْلِهِ: إِنَّ لِلْعَالَمِ رَبًّا غَيْرِي، وَالثَّانِي: فِي دَعْوَاهُ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَهُ.

وَالْأَوَّلُ أَشْبَهُ بِظَاهِرِ حَالِ فِرْعَوْن، فَإِنَّهُ كَانَ يُنكر ظَاهِرًا إِثْبَاتِ الصَّانِعِ وَالثَّانِي أَقْرَبُ إِلَى اللَّفْظِ حَيْثُ قَالَ: ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ﴾ أَيْ: فَأَسْأَلَهُ هَلْ أَرْسَلَهُ أَمْ لَا؟ ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ﴾ أَيْ: فِي دَعْوَاهُ ذَلِكَ.

وَإِنَّمَا كَانَ مَقْصُودُ فِرْعَوْنَ أَنْ يَصُدَّ النَّاسَ عَنْ تَصْدِيقِ مُوسَى عليه السلام، وَأَنْ يَحُثَّهُمْ عَلَى تَكْذِيبِهِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ ﴾ وَقُرِئَ: (وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ) ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴾.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ(١) وَمُجَاهِدٌ(٢): يَقُولُ: إِلَّا فِي خسار، أَيْ: بَاطِل، لَا يحصل لَهُ شيء مِنْ مَقْصُودِهِ الَّذِي رَامَهُ، فَإِنَّهُ لَا سَبِيلَ لِلْبَشَرِ أَنْ يَتَوَصَّلُوا بِقُوَاهُمْ إِلَى نَيْلِ السَّمَاءِ أَبَدًا - أَعْنِي: السَّمَاءَ الدُّنْيَا - فَكَيْفَ بِمَا بَعْدَهَا من السَّمَوَات العلى؟

وَمَا فَوْقَ ذَلِكَ مِنَ الِارْتِفَاعِ الَّذِي لَا يُعلمهُ إِلَّا الله عز وجل ؟ وَذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ

(١) فيه ضعف: رواه ابن جرير في «تفسيره» (٢٤/ ٤٣) من طريق (علي بن أبي طلحة) عن ابن عباس ولم يسمع منه.

(٢) فيه ضعف: رواه ابن جرير من طريق عن مجاهد. ولم يسمع منه التفسير.

الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ هَذَا الصَّرْحَ، وَهُوَ الْقَصْرُ الَّذِي بَنَاهُ وَزِيرُهُ هَامَانُ لَهُ لَمْ يُرَ بِنَاءٌ أَعْلَى مِنْهُ، وَأَنَّهُ كَانَ مَبْنِيًّا مِنَ الْآجُرِّ الْمَشْوِيِّ بِالنَّارِ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا﴾.

وَعِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ: أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانُوا يُسَخَّرُونَ فِي ضَرْبِ اللَّبِنِ، وَكَانَ مِمَّا حَمَلُوا مِنَ التَّكَالِيفِ الْفِرْعَوْنِيَّةِ أَنَّهُمْ لَا يُسَاعَدُونَ عَلَى شيء مِمَّا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِيهِ، بَلْ كَانُوا هُمُ الَّذِينَ يَجْمَعُونَ تُرَابَهُ وَتِبْنَهُ وَمَاءَهُ، وَيُطْلَبُ مِنْهُمْ كُلَّ يَوْمٍ قِسْطٌ مُعَيَّنٌ، إِنْ لَمْ يَفْعَلُوهُ ضُرِبُوا وَأُهِينُوا غَايَةَ الْإِهَانَةِ وَأُوذُوا غَايَةَ الْأَذِيَّةِ.

وَلِهَذَا قَالُوا لِمُوسَى: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩] فَوَعَدَهُمْ بِأَنَّ الْعَاقِبَةَ لَهُمْ عَلَى الْقِبْطِ، وَكَذَلِكَ وَقَعَ، وَهَذَا مِنْ دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ.

وَلْنَرْجِعْ إِلَى نَصِيحَةِ الْمُؤْمِنِ وَمَوْعِظَتِهِ وَاحْتِجَاجِهِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٣٨-٤٠].

يَدْعُوهُمْ ﵁ إِلَى طَرِيقِ الرَّشَادِ الْحق، وَهِيَ مُتَابَعَةُ نَبِيِّ اللهِ مُوسَى وَتَصْدِيقُهُ فِيمَا جَاءَ بِهِ من عِنْد رَبِّهِ.

ثُمَّ زَهَّدَهُمْ فِي الدُّنْيَا الدَّنِيَّةِ الْفَانِيَةِ الْمُنْقَضِيَةِ لَا مَحَالَةَ، وَرَغَّبَهُمْ فِي طَلَبِ الثَّوَابِ عِنْدَ اللهِ الَّذِي لَا يُضَيِّعُ عَمَلَ عَامِلٍ لَدَيْهِ، الْقَدِير الَّذِي ملكوت كل شيء بِيَدَيْهِ.

الَّذِي يُعْطِي عَلَى الْقَلِيلِ كَثِيرًا، وَمِنْ عَدْلِهِ لَا يُجَازَى عَلَى السَّيِّئَةِ إِلَّا مِثْلَهَا، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ، الَّتِي من وافاها -مُؤمنًا قد عمل الصَّالِحَات-

فَلـهُ الـدَّرَجَات الْعَالِيَـاتُ، وَالْغُـرَفُ الْآمِنَـاتُ، وَالْخَيْـرَاتُ الْكَثِيـرَةِ الْفَائِقَـاتُ، وَالْأَرْزَاقُ الدَّائِمَةُ الَّتِي لَا تَبِيدُ، وَالْخَيْرُ الَّذِي كُلُّ مَا لَهُمْ مِنْهُ فِي مَزِيدٍ.

ثُـمَّ شَـرَعَ فِـي إِبْطَـالِ مَـا هُـمْ عَلَيْـهِ، وَتَخْـوِيفِهِمْ مِمَّـا يـصيرون إِلَيْـهِ، فَقَـالَ: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾.

وذكر ابن كثير الآيات ثم قال:

كَانَ يَدعُوهُم إِلَى عبَادَة رب السَّمَوَات والأرض الَّذِي يَقُول للشيء كُنْ فَيَكُونُ، وَهُمْ يَدْعُونَهُ إِلَى عِبَادَةِ فِرْعَوْنَ الْجَاهِلِ الضَّالِّ الْمَلْعُونِ! وَلِهَذَا قَالَ لَهُمْ عَلَى سَبِيلِ الإنكار: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾

ثُمَّ بَيَّنَ لَهُمْ بُطْلَانَ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ مَا سِوَى اللهِ مِنَ الْأَنْدَادِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَنَّهَا لَا تَمْلِكُ مِنْ نَفْعٍ وَلَا إِضْرَار ، فَقَالَ: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أَيْ: لَا تَمْلِكُ تَصَرُّفًا وَلَا حُكْمًا فِي هَذِهِ الدَّارِ، فَكَيْفَ تَمْلِكُهُ يَوْمَ الْقَرَارِ؟ وَأَمَّا الله عَزَّوَجَلَّ فَإِنَّهُ الْخَالِقُ الرَّازِقُ لِلْأَبْرَارِ وَالْفُجَّارِ، وَهُوَ الَّذِي أَحْيَا الْعِبَادَ وَيُمِيتُهُمْ وَيَبْعَثُهُمْ، فَيُدْخِلُ طَائِعَهُمُ الْجَنَّةَ، وعاصيهم إِلَى النَّارَ.

ثُـمَّ تَوَعَّـدَهُمْ إِنْ هُـمُ اسْـتَمَرُّوا عَلَـى الْعِنَـادِ بِقَوْلِـهِ: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ قَـــالَ الله: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ أَيْ: بِإِنْكَارِهِ سَلِمَ مِمَّا أَصَابَهُمْ مِنَ الْعُقُوبَةِ عَلَى كُفْرِهِمْ بِاللهِ، وَمَكْرِهِمْ فِي صَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ، مِمَّا أَظْهَرُوا لِلْعَامَّةِ مِنَ الْخَيَالَاتِ والمحالات، الَّتِي ألبسوا بِهَا عَلَى عَوَامِّهِمْ وَطِغَامِهِمْ.

وَلِهَـــذَا قَـــالَ: ﴿وَحَاقَ﴾ أَيْ: أَحَـــاطَ ﴿بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ أَيْ: تُعْرَضُ أَرْوَاحُهُمْ فِي بَرْزَخِهِمْ صَبَاحًا وَمَسَاءً عَلَى النَّارِ.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾.

وَقَدْ تَكَلَّمْنَا عَلَى دَلَالَةِ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى عَذَابِ الْقَبْرِ فِي التَّفْسِيرِ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ.

۞ وَالْمَقْصُودُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يُهْلِكْهُمْ إِلَّا بَعْدَ إِقَامَةِ الْحُجَجِ عَلَيْهِمْ، وَإِرْسَالِ الرَّسُولِ إِلَيْهِمْ، وَإِزَاحَةِ الشُّبَهِ عَنْهُمْ، وَأَخذ الْحجَّة عَلَيْهِم مِنْهُم، بالترهيب تَارَةً وَالتَّرْغِيبِ أُخْرَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ...﴾ الآيات.

انتهى ما ذكره ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ من قصة مؤمن آل فرعون.

مشهد من مشاهد اللقاء بين موسى عليه السلام وفرعون من سورة الإسراء

أولاً ذكر الآيات:

قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُواْ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء: ١٠١-١٠٤].

معاني مفردات الآيات المباركات:

الكلمة	معناها
﴿تِسْعَ ءَايَٰتٍ﴾ ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾	تسع معجزات – تسع مؤيدات تؤيده في دعوته. واضحات ظاهرات – مظهرات أنه نبيٌّ من عند الله، ومظهرات لوحدانية الله وقدرته.
﴿مَسْحُورًا﴾	مخدوعًا – قد سحرك ساحرٌ فهُيئت لك الأمور على غير حقيقتها – ساحرًا.

الكلمة	معناها
﴿بَصَآئِرَ﴾	مُنيرات – يُستبصر بها ويستضاء بها.
﴿مَثْبُورًا﴾	هالكًا – ملعونًا – مطرودًا من الرحمة.
﴿يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾	يخرجهم من الأرض.
﴿لَفِيفًا﴾	جميعًا – مختلطين ملتفٌّ بعضكم ببعض.

ثالثًا: المعنى الإجمالي للآيات:

يُخبر الله سبحانه وتعالى بنعمه على نبيه موسى ﷺ وبما أيدّه به من المعجزات والحجج الباهرات فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ أما عن هذه الآيات فأقول، وبالله التوفيق:

هناك آيتان لا أعلم مخالفًا من أهل العلم أنهما داخلتان في الآيات التسع وهما العصا واليد.

قال تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأعراف: ١٠٧، ١٠٨].

وهناك خمس آيات أُخر في سورة الأعراف.

نقل ابن الجوزي في زاد المسير الاتفاق عليها من المفسرين -أي: أنها داخلة في التسع-.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ [الأعراف: ١٣٢، ١٣٣] فهي خمسٌ أخر (الطوفان – الجراد – القمل – الضفادع – الدم) فأصبح المجموع سبعًا.

قال ابن الجوزي: ثم اتفق جمهور المفسرين على سبع آيات منها، وهي: يده، والعصا، والطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم.

وأورد أقوالًا متعددة في الآيتين الأخيرتين.

قلت (مصطفى): فذهب فريق من العلماء إلى أن الآيتين الأخيرتين هما أخذ آل فرعون بالسنين -أي: سنوات الشدة والبلاء- ونقص الثمرات.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٠].

فالسنين ونقص الثمرات آية واحدة وهي الثامنة.

أما التاسعة فقال البعض: إنها انفلاق البحر لموسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الشعراء: ٦٣].

قلت (مصطفى): وهذه الأخيرة، وإن كانت معجزة بلا شك لكني لا أراها داخلة في الآيات التسع؛ لأن موسى خاطبه فرعون بعدها -أي: بعد الآيات التسع- ولكن فلق البحر تبعه غرق فرعون.

ومن العلماء من قال: إن الآيتين هما أن الله عز وجل أحلَّ العقدة التي كانت بلسان موسى عليه السلام، والثانية أنها دعاء موسى بالطمس على أموالهم وأولادهم.

وهنالك أقوالٌ أُخر فتحصل أن هناك سبع متفق عليها وهي: (اليد – العصا – الطوفان – الجراد – القمل – الضفادع – الدم).

وآيتان فيهما اختلاف:

أحدها: إحلال العقدة التي كانت بلسانه.

والثانية: أخذهم بالشدة والجوع ونقص الثمرات.

وهنالك أقوال أخر.

هذا، وقد ورد في هذا الباب حديث ضعيف لا يثبت عن رسول الله ﷺ أخرجه غير واحد من أهل الحديث[1] من حديث صَفْوَانَ بْنِ عَسّال الْمُرَادِيِّ رضي الله عنه

(١) أخرجه الطبري والترمذي في التفسير، والنسائي في تحريم الدم (٧/ ١١١، ١١٢)، وابن ماجه (٣٧٠٥) وغيرهم.

قَالَ: قَالَ يَهُودِيٌّ لِصَاحِبِهِ: اذْهَبْ بِنَا إِلَى هَذَا النَّبِيِّ حَتَّى نَسْأَلَهُ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ﴾ فَقَالَ: لَا تَقُلْ لَهُ: نَبِيٌّ فَإِنَّهُ لَوْ سَمِعَكَ لَصَارَتْ لَهُ أَرْبَعُ أَعْيُنٍ. فَسَأَلَاهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَا تَسْحَرُوا، وَلَا تَأْكُلُوا الرِّبَا، وَلَا تَمْشُوا بِبَرِيءٍ إِلَى ذِي سُلْطَانٍ لِيَقْتُلَهُ، وَلَا تَقْذِفُوا مُحْصَنَةً** -أَوْ قَالَ: **لَا تَفِرُّوا مِنَ الزَّحْفِ** -شُعْبَةُ الشَّاكُّ -**وَأَنْتُمْ يَا يَهُودُ، عَلَيْكُمْ خَاصَّةً أَنْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ**». فَقَبَّلَا يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ، وَقَالَا نَشْهَدُ أَنَّكَ نَبِيٌّ. وقَالَ: «**فَمَا يَمْنَعُكُمَا أَنْ تَتَّبِعَانِي؟**» قَالَا: لِأَنَّ دَاوُدَ عليه السلام دَعَا أَلَّا يَزَالَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ نَبِيٌّ، وَإِنَّا نَخْشَى إِنْ أَسْلَمْنَا أَنْ تَقْتُلَنَا يَهُودُ.

وهو ضعيف الإسناد من أجل عبد الله بن سلمة وهو متكلم فيه.

قال ابن كثير رحمه الله:

وهو حديث مشكل، وعبد الله بن سلمة في حفظه شيء، وقد تكلموا فيه، ولعله اشتبه عليه التسع الآيات بالعشر الكلمات، فإنها، وصايا في التوراة لا تعلق لها بقيام الحجة على فرعون، والله أعلم.

ثم قال ابن كثير رحمه الله:

فهذا كله مما يدل على أن المراد بالتسع الآيات إنما هي ما تقدم ذكره من العصا، واليد، والسنين، ونقص من الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم. التي فيها حجج وبراهين على فرعون وقومه، وخوارق ودلائل على صدق موسى ووجود الفاعل المختار الذي أرسله. وليس المراد منها كما ورد في هذا الحديث، فإن هذه الوصايا ليس فيها حجج على فرعون وقومه، وأي مناسبة بين هذا وبين إقامة البراهين على فرعون؟ وما جاء هذا الوهم إلا من قبل عبد الله بن سلمة فإن له بعض ما ينكر. والله أعلم. ولعل ذينك اليهوديين إنما سألا عن العشر الكلمات، فاشتبه على الراوي بالتسع الآيات، فحصل وهم في ذلك. والله أعلم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقد أوتي موسى عليه السلام آيات أخر كثيرة، منها ضربه الحجر بالعصا، وخروج الأنهار منه، ومنها تظليلهم بالغمام، وإنزال المن والسلوى، وغير ذلك مما أوتوه بنو إسرائيل بعد مفارقتهم بلاد مصر، ولكن ذكر هاهنا التسع الآيات التي شاهدها فرعون وقومه من أهل مصر، وكانت حجة عليهم فخالفوها وعاندوها كفرًا وجحودًا.

ولمزيد بيان عن المعنى الإجمالي للآيات المباركات، فأقول، وبالله التوفيق:

ولقد أيدنا موسى عليه السلام، وهو النبي الكليم الذي اصطفاه الله بالرسالة والتكليم، وهو موسى بن عمران عليه السلام، أيدناه بتسع من المعجزات العظيمة في دعوته لفرعون، أيدناه بتسعٍ من الآيات الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا وعلى أنه رسولٌ من عند الله، فجعلناها آيات مُعينةً له في دعوته، مُعينة له على فرعون وقومه، وقد تقدم بيان الآيات التسع (العصا – اليد – الطوفان – الجراد – القمل – الضفادع – الدم) وكذا سنوات الشدة ونقص الثمرات، وهي واحدة وهي الثامنة، وكذا حل العقدة التي كانت بلسانه، وقيل: انفلاق البحر، وثمَّ آيات أُخر، ولكن المذكورة من أعظم الآيات، وهذا فضلًا عن الآيات التي أيد الله عز وجل بها موسى عليه السلام، في دعوته لبني إسرائيل وفي سيرته معهم (كالتوراة – أو الألواح – وتظليل الغمام – وانفجار الحجر إلى اثنتي عشرة عينًا والمن والسلوى وغير ذلك).

أما قوله: ﴿فَسْـَٔلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ﴾ فمعناه فاسأل يا رسول الله بني إسرائيل من اليهود المحيطين بك في المدينة وغيرهم، اسألهم عن صدق ما ذكرته لك واسألهم عن هذه الآيات وهل هي حق أم لا.

فماذا كان يا رسول الله بعد أن أرسلنا موسى عليه السلام بهذه الآيات إلى فرعون؟ هل آمن؟! هل صدَّق؟!!

كلا فما آمن ولا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى واتهم موسى عليه السلام باتهامات باطلة، لقد قال لموسى عليه السلام إني لأظنك يا موسى مسحورًا، قيل: مخدوعًا، وقيل: ساحرًا، فوصف موسى عليه السلام بأنه ساحر أو مسحور فأجابه موسى عليه السلام بقوله: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ يا فرعون ﴿مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ أن هذه الآيات ما أنزلها إلا الله عز وجل، فأنت تعرف ذلك جيدًا يا فرعون، لكنك مكابرٌ ومكذب وجاحد، فأنت تعلم الحق ولكنك تجحده وتنكره، وهذا كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

أما قوله تعالى: ﴿بَصَآئِرَ﴾ فمعناه أنها موضحات للناس صدق موسى عليه السلام في رسالته، وفي دعواه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فهي بصائر يستبصر بها من أراد الله له الهداية.

هذا، وقول موسى عليه السلام: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ أي: وإني لأوقن تمام اليقين أنك يا فرعون هالكًا بتكذيبك مطرودًا من رحمة الله مُبعدًا عنها. والله أعلم.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ولقد آتينا موسى بن عمران تسع آيات بيِّنات تُبَين لمن رآها أنها حجج لموسى شاهدة على صدقه وحقيقة نبوّته.

وأورد أقوالًا نحوًا مما تقدم في بيان الآيات التسع ثم قال:

وأما قوله ﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ﴾ فإن عامّة قرّاء الإسلام على قراءته على وجه الأمر بمعنى: فاسأل يا محمد بني إسرائيل إذ جاءهم موسى.

وقوله: ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ يقول: فقال لموسى فرعون: إني لأظنك يا موسى تتعاطى علم السحر، فهذه العجائب التي تفعلها من سحرك، وقد يجوز أن يكون مرادًا به إني لأظنك يا موسى ساحرًا، فوضع

مفعول موضع فاعل، كما قيل: إنك مشؤوم علينا وميمون، وإنما هو شائم ويامن، وقد تأوّل بعضهم حجابًا مستورًا، بمعنى: حجابًا ساترًا، والعرب قد تخرج فاعلًا بلفظ مفعول كثيرًا.

وأورد الطبري وجهًا ضعيفًا من وجوه القراء في قوله: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ وصوَّب القراءة بفتح التاء وقال:

فإذا كان ذلك كذلك، فتأويل الكلام: قال موسى لفرعون: لقد علمت يا فرعون ما أنزل هؤلاء الآيات التسع البينات التي أريتكها حجة لي على حقيقة ما أدعوك إليه، وشاهدة لي على صدق وصحة قولي، إني لله رسول، ما بعثني إليك إلا ربّ السماوات والأرض؛ لأن ذلك لا يقدر عليه، ولا على أمثاله أحد سواه، بصائر: يعني بالبصائر: الآيات، أنهنّ بصائر لمن استبصر بهنّ، وهدى لمن اهتدى بهنّ، يعرف بهنّ من رآهنّ أن من جاء بهنّ فمحقّ، وأنهنّ من عند الله لا من عند غيره، إذ كنّ معجزات لا يقدر عليهنّ، ولا على شيء منهنّ سوى ربّ السموات والأرض، وهو جمع بصيرة.

وقوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ يقول: إني لأظنك يا فرعون ملعونًا ممنوعًا من الخير، والعرب تقول: ما ثبرك عن هذا الأمر: أي ما منعك منه، وما صدّك عنه؟ وثبره الله فهو يَثْبُرُهُ وَيُثْبِرُهُ لغتان، ورجل مثبور: محبوس عن الخيرات هالك، ومنه قول الشاعر:

إِذْ أُجارِي الشَّيطانَ في سَنَنِ الغَيّ ... وَمَنْ مالَ مَيْلَهُ مَثْبُورُ

وأورد الطبري: بسندٍ صحيح بطرقه عن ابن عباس قال: ﴿مَثْبُورًا﴾ ملعونًا، وأورد أقوالًا أُخر منها أن معناها (مغلوبًا)، ومنها مُبدِّلًا مغيِّرًا، ومنها مخبولًا لا عقل له.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا سؤال استفهام ليعرف اليهود صحة ما يقول محمد ﷺ ﴿فَقَالَ لَهُ

﴿فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا﴾ أي: ساحرًا بغرائب أفعالك، قاله الفراء وأبو عبيدة. فوضع المفعول موضع الفاعل، كما تقول: هذا مشؤم وميمون، أي شائم ويامن. وقيل: مخدوعًا. وقيل: مغلوبًا، قاله مقاتل. وقيل غير هذا.

وقال في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ﴾ يعني الآيات التسع. و﴿أَنْزَلَ﴾ بمعنى أوجد. ﴿إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ أي: دلالات يستدل بها على قدرته ووحدانيته.

وقراءة العامة: ﴿عَلِمْتَ﴾ بفتح التاء خطابًا لفرعون. وقرأ الكسائي بضم التاء، وهي قراءة علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال: والله ما علم عدو الله ولكن موسى هو الذي يعلم، فبلغت ابن عباس فقال: إنها ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾، واحتج بقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]. ونسب فرعون إلى العناد. وقال أبو عبيد: والمأخوذ به عندنا فتح التاء، وهو الأصح للمعنى الذي احتج به ابن عباس، ولأن موسى لا يحتج بقوله: علمت أنا، وهو الرسول الداعي، ولو كان مع هذا كله تصح به القراءة عن علي لكانت حجة، ولكن لا تثبت عنه، إنما هي عن كلثوم المرادي وهو مجهول لا يعرف، ولا نعلم أحدًا قرأ بها غير الكسائي.

وقال أيضًا: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ الظن هنا بمعنى التحقيق. والثبور: الهلاك والخسران أيضًا.

وأورد أقوالًا أخر.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ الآية، بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن فرعون عالم بأن الآيات المذكورة ما أنزلها إلا رب السموات والأرض بصائر، أي حججًا واضحة، وذلك يدل على أن قول فرعون ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾ [طه: ٤٩]، وقوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ

ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] كل ذلك منه تجاهل عارف.

وقد أوضح جل وعلا هذا المعنى مبينًا سبب جحوده لما علمه «في سورة النمل» بقوله: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ الآية [النمل: ١٢-١٤].

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في زاد المسير:

قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ﴾ قال أكثر المفسرين: الظن هاهنا بمعنى العِلم، على خلاف ظن فرعون في موسى، وسوّى بينهما بعضهم، فجعل الأول بمعنى العِلم أيضًا.

وفي المثبور ستة أقوال:

أحدها: أنه الملعون فذكرها وعزاها إلى قائليها وذكر الثاني منها: أنه المغلوب، والثالث: الناقص العقل، والرابع: المهلك، والخامس: الهالك، والسادس: الممنوع من الخير.

وأورد قولين في قوله: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم﴾:

أحدهما: يستأصلهم.

الثاني: يستخفهم حتى يخرجوا.

وأورد أقوالًا كذلك في قوله: ﴿ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾.

أحدها: فلسطين والأردن.

الثاني: أرض وراء الصين.

الثالث: أرض مصر والشام.

وقوله تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾.

معناه – والله تعالى أعلم-: فأراد فرعون أن يخرج موسى عليه السلام وبني إسرائيل من الأرض ويطردهم منها فأغرقناه ومن معه كلهم، وقلنا من بعد إغراقه وإهلاكه لبني إسرائيل اسكنوا الأرض، وهي أرض مصر، وقيل: مصر والشام، وقد قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ﴾ [الأعراف: ١٣٧] .

أما قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ أي: فإذا جاء يوم القيامة أخرجناكم من قبوركم يا بني إسرائيل أنتم وغيركم وجئنا بكم للحساب مختلطين بعضكم ببعض ملتفٌّ بعضكم ببعض، وقيل: لفيفًا جميعًا، ولا تعارض بين هذا وبين ما جاء في أن كل قوم يحشرون مع أمثالهم، وذلك لأن مواقف القيامة تتنوع وتتعدد فأول الأمر يخرجون من القبور مختلطين كالفراش المبثوث الذي يركب بعضه بعضًا ثمَّ بعد ذلك يرتبون ويكونون جماعات وأسراب كالجراد في مسيره، ثم أيضًا تتبع كل أمة ما كانت تعبد.

وبنحو ما ذكر في الآية عمومًا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: فأراد فرعون أن يستفز موسى وبني إسرائيل من الأرض، ﴿فَأَغْرَقْنَـٰهُ﴾ في البحر، ﴿وَمَن مَّعَهُۥ﴾ من جنده ﴿جَمِيعًا﴾، ونجَّينا موسى وبني إسرائيل، ﴿ وَقُلْنَا ﴾ لهم ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ هلاك فرعون ﴿ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ ﴾ أرض الشام ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ يقول: فإذا جاءت الساعة، وهي وعد الآخرة، جئنا بكم لفيفًا: يقول: حشرناكم من قبوركم إلى موقف القيامة لفيفًا: أي مختلطين قد التفّ بعضكم على بعض، لا تتعارفون، ولا ينحاز أحد منكم إلى قبيلته وحيِّه، من قولك: لففت الجيوش: إذا ضربت بعضها ببعض، فاختلط الجميع، وكذلك كلّ شيء خُلط بشيء فقد لُفّ به.

وأورد الطبري أيضًا عدة آثار في معنى لفيفًا منها: أثر أبي رزين بسندٍ صحيح عنه ﴿لَفِيفًا ﴾، قال: من كل قوم.

وأثر مجاهد بسندين يصحان بمجموعهما عنه ﴿لَفِيفًا ﴾ قال: جميعًا.

ونحوه عن قتادة قال: جميعًا، أي: أولكم وآخركم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: يخليهم منها ويزيلهم عنها ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ ﴾ وفي هذا بشارة لمحمد ﷺ بفتح مكة مع أن هذه السورة مكية نزلت قبل الهجرة، وكذلك وقع؛ فإن أهل مكة هموا بإخراج الرسول منها، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٦، ٧٧]؛ ولهذا أورث الله رسوله مكة، فدخلها عنوة على أشهر القولين، وقهر أهلها، ثم أطلقهم حلمًا وكرمًا، كما أورث الله القوم الذين كانوا يستضعفون من بني إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها، وأورثهم بلاد فرعون وأموالهم وزروعهم وثمارهم وكنوزهم، كما قال: ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء: ٥٩]، وقال هاهنا ﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ أي: جميعكم أنتم وعدوكم.

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك: ﴿لَفِيفًا ﴾ أي: جميعًا.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ أي: أراد فرعون أن يخرج موسى وبنى إسرائيل من أرض مصر بالقتل أو الإبعاد، فأهلكه الله عَزَّوَجَلَّ ﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ أي: من بعد إغراقه. ﴿لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ ﴾ أي: أرض الشأم ومصر. ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: القيامة. ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ أي: من قبوركم مختلطين من كل موضع، قد اختلط المؤمن بالكافر لا يتعارفون ولا ينحاز أحد منكم إلى قبيلته وحيه. وقال ابن عباس وقتادة: جئنا بكم جميعًا من جهات شتى. والمعنى واحد. قال الجوهري: واللفيف ما اجتمع من الناس من قبائل

شتى، يقال: جاء القوم بلفهم ولفيفهم، أي: وأخلاطهم. وقوله تعالى: ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ أي: مجتمعين مختلطين. وطعام لفيف إذا كان مخلوطًا من جنسين فصاعدًا. وفلان لفيف فلان أي: صديقه. قال الأصمعي: اللفيف جمع وليس له واحد، وهو مثل الجميع. والمعنى: أنهم يخرجون وقت الحشر من القبور كالجراد المنتشر، مختلطين لا يتعارفون.

مشهد من المشاهد للقاء بين موسى عليه السلام

وفرعون في آيات من سورة النازعات

قال الله عز وجل: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [النازعات: ١٥-٢٦].

معاني مفردات الآيات:

الكلمة	معناها
﴿ٱلْمُقَدَّسِ﴾	المبارك المطهر.
﴿طُوًى﴾	من العلماء من قال: طوى اسم للوادي، ومنهم من قال: إنه قدس طوى، أي: قُدِّس مرتين، أي: بورك فيه مرتين، ومنهم من قال: إن معناه: طأ الأرض بقدمك حافيًا، وقيل: مطوي كطي البئر[1].
﴿طَغَىٰ﴾	عتا وتجاوز الحد في العدوان والتكبر على الخلق والافتراء على الله.

(١) والبئر المطوية: هي البئر التي بُطنت حافتها بأحجار حتى لا تنهار، والوادي واد متسع على جوانبه صخور (على هذا التأويل الأخير).

الكلمة	معناها
﴿تَزَكَّىٰ﴾	تتطهر من دنس الكفر والمعاصي وتؤمن - تسلم فتطهر من الذنوب.
﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾	أدلك وأرشدك إلى عبادة ربك وما يرضيه عنك.
﴿فَحَشَرَ﴾	جمع.
﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ﴾	عاقبه الله - أهلكه الله.
﴿نَكَالَ﴾	النكال: العقوبة العظيمة على الذنب، التي تمنع من سمع بها من ارتكاب مثل هذا الذنب، ويطلق التنكيل أيضًا على ما يفتضح به صاحبه ويعتبر به غيره. والله أعلم.
﴿لَعِبْرَةً﴾	عظة يتعظ بها، وزاجر ينزجر به من يخشى.

المعنى الإجمالي: يقول تعالى ذِكره لنبيه محمد ﷺ ما معناه: وهل نما إلى علمك حديث موسى؟! وقد جَاءك حديث موسى وما جرى بينه وبين فرعون، وما الذي كلفه الله به؟!

فكلمة (هل) تأتي أحيانًا بمعنى قد، كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾ [الإنسان: ١] أي: قد أتى.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾ حين كلمه ربه عَزَّوَجَلَّ بالواد المقدس في سيناء، ذلك الوادي الذي بورك فيه مرتين، وبماذا كلف الله عَزَّوَجَلَّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؟

لقد كلفه بالذهاب إلى فرعون لدعوته إلى الله لكونه قد استكبر في الأرض بغير الحق.

قال تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ تجاوز الحد في الظلم والافتراء، (فقل) يا موسى قل لفرعون ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ ومعناها والله أعلم: هل لك رغبة في أن تتطهر من الشرك والمعاصي وتُسلم وتصلح العمل، وأرشدك إلى عبادة الله وتوحيده فيحصل لك العلم وتحصل لك المعرفة بالله

سبحانه وتكون من العلماء ومن ثم تخشى الله عَزَّوَجَلَّ وتخشى عقوبته فإنما يخشى الله من عباده العلماء؟!!

وقوله تعالى: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ المراد بالآية الكبرى عند جمهور المفسرين[1]: هي العصا واليد، كما قال تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [الشعراء: ٣٢، ٣٣].

فما كان من فرعون بعد أن أراه موسى عليه السلام الآية الكبرى، ما كان منه إلا التكذيب والعصيان.

قال تعالى: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾ أما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾ ففيه أقوال:

أحدها: أنه لما رأى الحية أدبر مرعوبًا مسرعًا في مشيه هاربًا منها.

الثاني: أنه لما جاءته البينات أعرض عنها، واتجه للعمل بالفساد في الأرض، وجمع ما يستطيع من كيدٍ وأدلةٍ وبراهين لدحض حجة موسى عليه السلام، كما قال عن نظيره: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، فسعيه في الأرض كان بالفساد.

أما قوله: ﴿فَحَشَرَ﴾ أي: فجمع، أي: جمع جنوده للقتال والمحاربة، وجمع السحرة لمواجهة موسى بسحرهم، وجمع الناس للحضور ومشاهدة ما يقع من السحرة مع موسى.

ونادى في هؤلاء جميعًا: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾.

لأهل العلم فيه أقوال:

أحدها: أن المراد بالآخرة والأولى: الآخرة والدنيا[2] (قال ابن كثير: وهو

---

(١) نقله عنهم غير واحد من أهل العلم منهم ابن الجوزي في «زاد المسير» وغيره من العلماء، وقد صح هذا عن الحسن وقتادة وابن زيد وغيرهما كما عند الطبري.

(٢) وقد صحَّ ذلك عن قتادة، وروي بإسنادٍ حسن عن الحسن البصري أيضًا كما عند الطبري وغيره.

=

الصحيح الذي لا شك فيه).

الثاني: أن المراد بالأولى: قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، والمراد بالآخرة: قوله: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

الثالث: أن المراد بالآخرة والأولى كفره وعصيانه.

الرابع: أن المراد بالآخرة والأولى آخر أعماله السيئة وأولها.

قصة لقاء موسى عليه السلام بفرعون، إلى أن أهلك الله فرعون كما رواها ابن عباس رضي الله عنهما في حديث الفتون

قال ابن عباس رضي الله عنهما في حديث الفتون، وقد تقدمت بعض أجزائه، قال رحمه الله ورضي الله عنه: فَلَمَّا سَارَ مُوسَى بِأَهْلِهِ كَانَ مِنْ أَمْرِ النَّارِ وَالْعَصَا وَيَدِهِ مَا قَصَّ اللهُ عَلَيْكَ فِي الْقُرْآنِ، فَشَكَا إِلَى رَبِّهِ تَعَالَى مَا يَتَخَوَّفُ مِنْ آل فرعون في القتل وعقد لسانه، فإنه كَانَ فِي لِسَانِهِ عُقْدَةٌ تَمْنَعُهُ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْكَلَامِ، وَسَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يُعِينَهُ بِأَخِيهِ هَارُونَ، يَكُونُ لَهُ رِدْءًا، وَيَتَكَلَّمُ عَنْهُ بِكَثِيرٍ مِمَّا لَا يُفْصِحُ بِهِ لِسَانُهُ. فَآتَاهُ اللهُ سُؤْلَهُ، وَحَلَّ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِهِ، وَأَوْحَى اللهُ إِلَى هَارُونَ وَأَمَرَهُ أَنْ يَلْقَاهُ. فَانْدَفَعَ مُوسَى بِعَصَاهُ حَتَّى لَقِيَ هَارُونَ عليهما السلام. فَانْطَلَقَا جَمِيعًا إِلَى فِرْعَوْنَ، فَأَقَامَا عَلَى بَابِهِ حِينًا لا يؤذن لهما، ثم أذن لهما بعد حِجَابٍ شَدِيدٍ، فَقَالَا: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧]. ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٩]، فَأَخْبَرَهُ بِالَّذِي قَصَّ اللهُ

= قلت: والمراد بنكال الدنيا على هذا التأويل تعذيبه بالغرق وإظهاره أمام الناس عبرة لمن يخشى كما قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ [يونس: ٩٢].

والمراد بنكال الآخرة تعذيبه في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨]، وكما قال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

عَلَيْكَ فِي الْقُرْآنِ؟ قَالَ: فَمَا تُرِيدَانِ؟ وَذَكَّرَهُ الْقَتِيلَ، فَاعْتَذَرَ بِمَا قَدْ سَمِعْتَ. قَالَ: أُرِيدُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَتُرْسِلَ مَعِيَ بَنَى إِسْرَائِيلَ؟ فَأَبَى عَلَيْهِ ذلك وَقَالَ: ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [الشُّعَرَاءِ: ١٥٤]. فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ عَظِيمَةٌ فَاغِرَةً فَاهَا، مُسْرِعَةً إِلَى فِرْعَوْنَ. فَلَمَّا رَآهَا فِرْعَوْنُ قَاصِدَةً إِلَيْهِ خَافَهَا، فَاقْتَحَمَ عَنْ سَرِيرِهِ وَاسْتَغَاثَ بِمُوسَى أَنْ يَكُفَّهَا عَنْهُ. فَفَعَلَ، ثُمَّ أَخْرَجَ يَدَهُ مِنْ جَيْبِهِ فَرَآهَا بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ -يَعْنِي مِنْ غَيْرِ بَرَصٍ- ثُمَّ رَدَّهَا فَعَادَتْ إِلَى لَوْنِهَا الْأَوَّلِ. فَاسْتَشَارَ الْمَلَأَ حَوْلَهُ فِيمَا رَأَى، فَقَالُوا لَهُ: ﴿إِنْ هَـٰذَانِ لَسَـٰحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ [طه: ٦٣] يَعْنِي: مُلْكَهُمُ الَّذِي هُمْ فِيهِ وَالْعَيْشَ، فَأَبَوْا أَنْ يُعْطُوهُ شَيْئًا مِمَّا طَلَبَ، وَقَالُوا لَهُ: اجْمَعِ السَّحَرَةَ فَإِنَّهُمْ بِأَرْضِكَ كَثِيرٌ حَتَّى تَغْلِبَ بِسِحْرِكَ سِحْرَهُمَا. فَأَرْسَلَ إِلَى الْمَدَائِنِ فَحُشِرَ لَهُ كُلُّ سَاحِرٍ مُتَعَالِمٍ، فَلَمَّا أَتَوْا فِرْعَوْنَ قَالُوا: بِمَ يَعْمَلُ هَذَا السَّاحِرُ؟ قَالُوا: يَعْمَلُ بِالْحَيَّاتِ. قَالُوا: فَلَا وَاللهِ مَا أَحَدٌ فِي الْأَرْضِ يَعْمَلُ بِالسِّحْرِ بِالْحَيَّاتِ وَالْحِبَالِ وَالْعِصِيِّ الَّذِي نَعْمَلُ. فَمَا أَجْرُنَا إِنْ نَحْنُ غَلَبْنَا؟ قَالَ لَهُمْ: أَنْتُمْ أَقَارِبِي وَخَاصَّتِي، وَأَنَا صَانِعٌ إِلَيْكُمْ كُلَّ شَيْءٍ أَحْبَبْتُمْ، فَتَوَاعَدُوا يَوْمَ الزِّينَةِ، ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩].

الفصل الخامس

المعركة الحاسمة بين نبي الله موسى عليه السلام

وسحرة فرعون

وبيانها من السور الآتية:

١- سورة طه من آية ٥٦ إلى ٧٦.

٢- سورة الشعراء من آية ٣٨ إلى ٥١.

٣- من سورة الأعراف من آية ١١٣ إلى ١٢٩.

٤- من سورة القصص من آية ٣٦ إلى ٤٣.

(٢٦٢) أحمر أسود

مشهد عظيم ولقاء مثير بين موسى عليه السلام وبين سحرة فرعون

في معركة حاسمة انتصر فيها الحق، والحق دومًا في انتصار إن شاء الله

هذا مشهد عظيم ذُكر بأجمل ذِكر، وسيق بأحسن سياق مشهد بين موسى عليه السلام وبين سحرة فرعون والجموع الحاشدة تنظر وكان ذلك يوم الزينة، يوم العيد!! وبعد سنوات منذ أرسل موسى عليه السلام لفرعون!

وكان في وقت الضحى!!

وكما سيأتي في سورة طه إذ قال السحرة لموسى عليه السلام: ﴿فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانٗا سُوٗى ٥٨ قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى ٥٩﴾ فإلى هذا المشهد العظيم.

أسوق أولًا آيات من سورة طه في هذا الصدد وكذا من سورة الشعراء، والله المستعان.

أسوقها ومعاني مفرداتها ثم إلى المشهد العظيم.

أولاً: ذِكر آيات من سورة طه في هذا الصدد:

﴿وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ٥٦ قَالَ أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ ٥٧ فَلَنَأۡتِيَنَّكَ بِسِحۡرٖ مِّثۡلِهِۦ فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانٗا سُوٗى ٥٨ قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى ٥٩ فَتَوَلَّىٰ فِرۡعَوۡنُ فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ٦٠ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖۖ وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ ٦١ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ٦٢ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ٦٣ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ٦٤ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ٦٥ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ٦٦ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ

خِيفَةَ مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ [طه: ٥٦-٧٠].

معاني مفردات الآيات المباركات:

الكلمة	معناها
﴿ءَايَٰتِنَا﴾	معجزاتنا- دلالاتنا على وحدانيتنا
﴿وَأَبَىٰ﴾	رفض (أن يؤمن)
﴿مَكَانًا سُوًى﴾	مكان وسطًا نصفًا عدلًا
﴿يَوْمُ الزِّينَةِ﴾	يوم عيد لهم كانوا يتزينون فيه
﴿يُحْشَرَ﴾	يجمع
﴿ضُحًى﴾	وقت الضحى
﴿فَتَوَلَّىٰ﴾	فانصرف من عند موسى عليه السلام
﴿كَيْدَهُ﴾	ما يكيد به لموسى عليه السلام وهم سحرته وجنده
﴿لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾	لا تكذبوا على الله – لا تقولوا على الله غير الحق
﴿فَيُسْحِتَكُم﴾	فيهلككم- فيستأصلكم
﴿افْتَرَىٰ﴾	كذب
﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم﴾	اختلفوا فيما بينهم – تشاوروا فيما بينهم
﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ﴾	تحدثوا سرًّا فيما بينهم
﴿بِطَرِيقَتِكُمُ﴾	بوجهاء قومكم والسادة وأصحاب رؤوس الأموال، وقيل: بطريقتكم في السحر
﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾	فأحضروا سحركم وائتوا بما استطعتم فيه
﴿ءَايَٰتِنَا﴾	معجزاتنا- دلالاتنا على وحدانيتنا
﴿وَأَبَىٰ﴾	رفض (أن يؤمن)
﴿مَكَانًا سُوًى﴾	مكان وسطًا نصفًا عدلًا

الكلمة	معناها
﴿يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾	يوم عيد لهم كانوا يتزينون فيه
﴿يُحْشَرَ﴾	يجمع
﴿ضُحًى﴾	وقت الضحى
﴿فَتَوَلَّىٰ﴾	فانصرف من عند موسى عليه السلام
﴿كَيْدَهُۥ﴾	ما يكيد به لموسى عليه السلام وهم سحرته وجنده
﴿لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾	لا تكذبوا على الله – لا تقولوا على الله غير الحق
﴿فَيُسْحِتَكُم﴾	فيهلككم- فيستأصلكم
﴿ٱفْتَرَىٰ﴾	كذب
﴿فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم﴾	اختلفوا فيما بينهم – تشاوروا فيما بينهم
﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ﴾	تحدثوا سرًّا فيما بينهم
﴿بِطَرِيقَتِكُمُ﴾	بوجهاء قومكم والسادة وأصحاب رؤوس الأموال، وقيل: بطريقتكم في السحر
﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ﴾	فأحضروا سحركم وائتوا بما استطعتم فيه
﴿ٱئْتُوا۟ صَفًّا﴾	اجتمعوا ولا تفترقوا
﴿أَفْلَحَ﴾	فاز بالمطلوب ونجا من المرهوب
﴿ٱسْتَعْلَىٰ﴾	كانت له الغلبة والعلو
﴿تَسْعَىٰ﴾	تجري- تتحرك- تضطرب
﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً﴾	أحس في نفسه بالخوف
﴿تَلْقَفْ﴾	تبتلع – تلتهم بسرعة وبشدة
﴿كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾	مكر ساحرٍ، واحتيال ساحر
﴿حَيْثُ أَتَىٰ﴾	في أي مكان كان، ومن أي مكان أتى
﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾	خروا لله ساجدين

وبعد، فإلى الآيات وتفسيرها، وبيان هذا المشهد العظيم المترقب، الذي يترقبه أهل مصر آنذاك، مشهد اللقاء بين موسى عليه السلام والسحرة.

حقًّا إنه مشهدٌ عظيمٌ مرتقبٌ، ومعركةٌ حاسمةٌ بين الحق والباطل!! مشهد عظيم دعا إليه فرعون مصر!!وحرَّض على حضوره والإتيان إليه.

وأرسل رجال الإعلام والدعايات يدعون إليه: ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

وحقًّا فقد يدعو شخص الناس لرؤية هلاكه ومصرعه وهزيمته وفضيحته وبطلان قوله وهو لا يدري[1]!!!

لقد اجتهد فرعون وجهازه الإعلامي غاية الاجتهاد لتشويه صورة موسى عليه السلام، ولكن الله سلَّم!

لقد وصف فرعونُ نبيَّ الله موسى عليه السلام وكليمه بأنه مفسد في الأرض وَيريد أن يُظهر فيها الفساد قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾.

وفي ذات الوقت يصف فرعون نفسه بأنه الهادي إلى سبيل الرشاد، ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

إنه لقاء استعد له فرعون منذ سنوات وأخذ له جميع احتياطاته ووسائل الانتصار فيه وقام بحربه الإعلامية على الوجه الذي ذُكر من قبل وهيأ شعبه وقومه لهذا اللقاء!!

واستدعى السحرة من كل البلاد!!

وهذا كله بعد تكذيبه بالآيات وإنكاره المعجزات والاستهزاء والضحك والسخرية من موسى وهارون عليهما السلام والتهديد بالقتل تارة، وبالسجن تارةً أخرى ووصفه بالجنون تارة، وبالفساد تارة، وبالكذب تارة أخرى!!

---

(١) كما صنع فرعون وكما صنع الملك الوارد ذِكره في قصة أصحاب الأخدود.

وهنا سؤال يُطرح، وحاصله أن الله عَزَّوَجَلَّ أيَّد نبيه موسى عليه السلام بآيات أخر - غير العصا واليد- كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ وهذه الآيات منها ما ذكره الله عَزَّوَجَلَّ في قوله: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٠].

وقال تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ ﴾ أي: بينها فواصل زمنية.

فهل كانت هذه الآيات (الأخذ بالسنين – والطوفان – والجراد – والقمل – والضفادع – والدم) هل كانت هذه قبل لقاء موسى عليه السلام بالسحرة كما قد يفهم من سورة طه إذ الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ ﴾.

أما أنها (أعني الآيات التي أيد الله بها موسى من الأخذ بالسنين أي: المجاعات ونقص من الثمرات والطوفان والجراد ...) كانت بعد هزيمة سحرة فرعون، وإعلانهم الإيمان كما قد يستفاد من سورة الأعراف إذ الله سبحانه بعد أن ذكر قصة السحرة وإيمانهم ذكر آيات بعدها وفيها: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾.

وقد يطرح السؤال باختصار هل كانت الآيات الأُخَرَ[1] بعد لقاء موسى عليه السلام بالسحرة أم أنها كانت قبل ذلك؟

كل محتمل، وإن كان الأظهر، والله أعلم، أنها كانت بعد لقاء موسى عليه السلام مع السحرة والله أعلم.

وأعود فأقول مستعينًا بالله: لقد قال تعالى في شأن فرعون: ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ ﴾.

أي: أنه رأى الآيات التسع- التي سبق التذكير بها- آية بعد آية ولم تنفعه

(١) أعني غير العصا واليد.

هذه الآيات ولم ينتفع بها!! بل ازداد كفرًا وعصيانًا وتمردًا وإباءً.

واتهامًا لموسى عليه السلام بقوله: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى﴾.

وتوعدًا بقوله: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ﴾.

فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (٥٦) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (٥٩)﴾.

حاصل معناه والله أعلم: ولقد أطلعنا فرعون على معجزاتنا التي أيدنا بها نبينا موسى ﷺ وعلى غيرها من الآيات الدالة على قدرتنا ووحدانيتنا فكذب بكل هذه الآيات ورفض أن يؤمن وامتنع أشد الامتناع، وقال لموسى عليه السلام: أجئتنا يا موسى بالذي جئتنا به من دعوى الرسالة لتخرجنا من أرضنا وتكون لكما أنت وأخيك السيادة والقيادة في البلاد بسحرك الذي أتيتنا به من العصا التي تحولها إلى ثعبان ومن اليد التي تخرج بيضاء من جيبك، فعلى كلٍّ لنجيأنك بمن هو ساحر من أمثالك فيأتيك بسحر مثل سحرك.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ولقد أرينا فرعون آياتنا، يعني أدلتنا وحججنا على حقيقة ما أرسلنا به رسولينا، موسى وهارون إليه كلها ﴿فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾ أن يقبل من موسى وهارون ما جاءا به من عند ربهما من الحق استكبارًا وعتوًّا.

يقول تعالى ذكره: قال فرعون لما أريناه آياتنا كلها لرسولنا موسى: أجئتنا يا موسى لتخرجنا من منازلنا ودورنا بسحرك هذا الذي جئتنا به ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ﴾

وقال ابن كثير رحمه الله:

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾ يعني: فرعون، أنه قامت عليه الحجج والآيات والدلالات، وعاين ذلك وأبصره، فكذب بها وأباها كفرًا

وعنادًا وبغيًا، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن فرعون أنه قال لموسى حين أراه الآية الكبرى، وهي إلقاء عصاه فصارت ثعبانًا عظيمًا ونزع يده من تحت جناحه فخرجت بيضاء من غير سوء فقال: هذا سحر، جئت به لتسحرنا وتستولي به على الناس، فيتبعونك وتكاثرنا بهم، ولا يتم هذا معك، فإن عندنا سحرًا مثل سحرك، فلا يغرنك ما أنت فيه.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا﴾ أي:المعجزات الدالة على نبوة موسى وقيل: حجج الله الدالة على توحيده ﴿فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾﴾ أي:لم يؤمن وهذا يدل على أنه كفر عنادٍ؛لأنه رأى الآيات عيانًا لا خبرًا نظيره ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ لما رأى الآيات التي أتاه بها موسى قال: إنها سحر؛ والمعنى: جئت لتوهم الناس أنك جئت بآية توجب اتباعك والإيمان بك، حتى تغلب على أرضنا وعلينا. ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ أي:لنعارضنك بمثل ما جئت به ليتبين للناس أن ما أتيت به ليس من عند الله.

موعد اللقاء بين موسى عليه السلام والسحرة

فرعون يطلب تحديد موعد اللقاء وموسى عليه السلام يختار أن يكون الموعد يوم الزينة وكذلك يختار أن يكون الموعد وقت الضحى.

هذا، وبعد أن رأى فرعون الآيات، جحد بها وكذب ووصفها بأنها سحر، وقال لموسى عليه السلام: فلنأتينك بسحر مثله، أي: ليقضي عليك ويفضحك ويبين للناس أنك ساحر، طلب فرعون من موسى عليه السلام تحديد موعدٍ فقال: ﴿فَٱجْعَلْ

بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ ﴾ والمعنى فحدِّد موعدًا نلتقي فيه ومكانًا نلتقي فيه يكون مكانًا وسطًا بيننا وبينك وعدلًا بيننا وبينك لا نتخلف عنه، ويرانا الناس كلهم فيه، قال موسى عليه السلام مُحددًا موعدًا: موعدكم يوم الزينة، يوم العيد الذي يتزينون فيه وأن يجتمع الناس فيه وقت الضحى.

قال الطبري رحمه الله:

﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا ﴾ لا نتعدَّاه، لنجيء بسحر مثل الذي جئت به، فننظر أينا يغلب صاحبه، لا نخلف ذلك الموعد ﴿ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴾ يقول: بمكان عدل بيننا وبينك ونَصَف.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴾.

يقول تعالى ذكره: قال موسى لفرعون، حين سأله أن يجعل بينه وبينه موعدًا للاجتماع: ﴿ مَوْعِدُكُمْ ﴾ للاجتماع ﴿ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ ﴾ يعني يوم عيد كان لهم، أو سوق كانوا يتزينون فيه ﴿ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ﴾ يقول: وأن يُساق الناس من كلّ فجّ وناحية ﴿ضُحًى ﴾ فذلك موعد ما بيني وبينك للاجتماع.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

﴿ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا ﴾ أي: يومًا نجتمع نحن وأنت فيه، فنعارض ما جئت به بما عندنا من السحر في مكان معين ووقت معين فعند ذلك ﴿ قَالَ ﴾ لَهُمْ مُوسَى: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ ﴾ وهو يوم عيدهم ونيروزهم وتفرغهم من أعمالهم واجتماعهم جميعهم؛ ليشاهد الناس قدرة الله على ما يشاء، ومعجزات الأنبياء، وبطلان معارضة السحر لخوارق العادات النبوية، ولهذا قال: ﴿ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ﴾ أي: جميعهم ﴿ضُحًى﴾ أي: ضحوة من النهار ليكون أظهر وأجلى وأبين وأوضح، وهكذا شأن الأنبياء، كل أمرهم واضح، بيّن، ليس فيه خفاء ولا ترويج؛ ولهذا لم يقل «ليلًا» ولكن نهارًا ضحى.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا﴾ هو مصدر؛ أي: وعدًا. وقيل: الموعد اسم لمكان الوعد؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الحجر: ٤٣] فالموعد ها هنا مكان. وقيل: الموعد اسم لزمان الوعد؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُ﴾ [هود: ٨١] فالمعنى: اجعل لنا يومًا معلومًا، أو مكانًا معروفًا. قال القشيري: والأظهر أنه مصدر ولهذا قال: ﴿لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ﴾ أي: لا نخلف ذلك الوعد، والإخلاف أن يعد شيئًا ولا ينجزه.

وأورد القرطبي أقوالًا في معنى سوى منها مكانًا مستويًا يتبين للناس ما بيَّنا فيه ومنها وسطًا، وعدلًا.

وقال: ﴿مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ﴾ واختلف في يوم الزينة، فقيل: هو يوم عيد كان لهم يتزينون ويجتمعون فيه؛ قاله قتادة والسدي وغيرهما. وقال ابن عباس وسعيد بن جبير: كان يوم عاشوراء. وقال سعيد بن المسيب: يوم سوق كان لهم يتزينون فيها؛ وقاله قتادة أيضًا. وقال الضحاك: يوم السبت. وقيل: يوم النيروز؛ ذكره الثعلبي. وقيل: يوم يكسر فيه الخليج؛ وذلك أنهم كانوا يخرجون فيه يتفرجون ويتنزهون؛ وعند ذلك تأمن الديار المصرية من قبل النيل.

وقال: وإنما واعدهم ذلك اليوم؛ ليكون علو كلمة الله، وظهور دينه، وكبت الكافر، وزهوق الباطل على رؤوس الأشهاد، وفي المجمع الغاص لتقوى رغبة من رغب في الحق، ويكل حد المبطلين وأشياعهم، ويكثر المحدث بذلك الأمر العلم في كل بدو وحضر، ويشيع في جمع أهل الوبر والمدر.

ولمزيدٍ من الإيضاح لسبب اختيار وقت الضحى، وأقول، وبالله التوفيق:

اختار عَلَيْهِ السَّلَامُ وقت الضحى لأمور:

منها: دفع الالتباس والاشتباه الذي قد يكون في أوقات أُخر فالرؤيا واضحة فيه.

ومنها: أن عمل الشياطين في التلبيس على الناس يكون أقلَّ في هذا الوقت فالشياطين تنتشر أوقات الظلمات، ويشهد لهذا المعنى قول الله تعالى: في شأن رسوله محمد ﷺ ورؤيته لجبريل عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ﴾ وهو اتجاه السماء ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ المظهر الموضح للأشياء وهو اتجاه طلوع الشمس حيث تندفع الأوهام.

وأيضًا من الأسباب أن اجتماع الناس وقت الضحى يوم العيد أكبر من اجتماعهم في وقت آخر والله أعلم.

وأعود فأقول: ماذا كان من فرعون، وبعد أن حدَّد له موسى عليه السلام موعد اللقاء، وأنه يوم الزينة، يوم العيد ووقت اللقاء ضحى!!

قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ﴾.

والمعنى والله أعلم: فانصرف فرعون من عند موسى عليه السلام بعد أن اتفق معه على الموعد والمكان الذي سيلتقي فيه موسى عليه السلام بالسحرة فجمع فرعون ما استطاع أن يجمع من صنوف الكيد والمكر والاحتيال التي يكيد به لموسى عليه السلام ثم أتى بهم!!

هكذا صنع هذا الطاغية، وبنحو ما ذُكر قال العلماء:

قال الطبري رحمه الله:

وقوله: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ﴾ يقول تعالى ذكره: فأدبر فرعون معرضًا عما أتاه به من الحقّ ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾ يقول: فجمع مكره، وذلك جمعه سحرته بعد أخذه إياهم بتعلمه ﴿ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾﴾ يقول: ثم جاء للموعد الذي وعده موسى، وجاء بسحرته.

وقال ابن كثير رحمه الله:

يقول تعالى مخبرًا عن فرعون أنه لما تواعد هو بموسى عليه السلام، إلى وقت ومكان معلومين، تولى، أي: شرع في جمع السحرة من مدائن مملكته، كل من ينسب إلى سحر في ذلك الزمان. وقد كان السحر فيهم كثيرًا نافقًا جدًّا، كما قال

تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾ [يونس: ٧٩].

﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾ أي: اجتمع الناس لميقات يوم معلوم وهو يوم الزينة، وجلس فرعون على سرير مملكته، واصطف له أكابر دولته، ووقفت الرعايا يمنة ويسرة وأقبل موسى عليه السلام يتوكأ على عصاه، ومعه أخوه هارون، ووقف السحرة بين يدي فرعون صفوفًا، وهو يحرضهم ويحثهم، ويرغبهم في إجادة عملهم في ذلك اليوم، ويتمنون عليه، وهو يعدهم ويمنيهم فيقولون: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٤١، ٤٢].

قال الشنقيطي رحمه الله (أضواء البيان):

قوله تعالى: ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾ الظاهر: أن المراد بـ «كيده» ما جمعه من السحر ليغلب به موسى في زعمه وعليه فالمراد بقوله: ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾ هو جمعه للسحرة من أطراف مملكته ويدل على هذا أمران: أحدهما: تسمية السحر في القرآن كيدًا؛ كقوله: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾ الآية، وقوله تعالى عن السحرة: ﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ﴾ وكيدهم سحرهم. والثاني: أن الذي جمعه فرعون هو السحرة كما دلت عليه آيات من كتاب الله؛ كقوله تعالى في «الأعراف»: ﴿وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾. وقوله: ﴿حَٰشِرِينَ﴾ أي: جامعين يجمعون السحرة من أطراف مملكته، وقوله في «الشعراء»: ﴿وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾، وقوله في «يونس»: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾.

وأعود قائلًا: فماذا كان من موسى عليه السلام لما جُمعت له الجموع من السحرة واستدعاهم فرعون إلى ساحة المعركة؟؟

لقد حضر موسى عليه السلام ولم يتخلف!!

وقال العلماء: حضر أيضًا معه أخوه هارون عليه السلام!! وقيل أيضًا حضر عددٌ من بني إسرائيل!!

وفي الجانب المقابل فرعون وأئمة الكفر ووزراء سوء وقومٌ ضلالُ مغيَّبون فُساق!! صدقوا من قال لهم أنا ربكم الأعلى، وصدقوا ما روَّجه فرعون عليهم!!

فحقًّا إنه مشهد عظيم، جمعٌ كبيرٌ، والأعصاب مشدودة، والكل ينظر عاقبة هذا اللقاء ونتيجة هذه المعركة الحاسمة بين موسى عليه السلام وبين سحرة فرعون!!

معركة في وضح النهار، ويوم العيد والكل مجتمعون!!

معركة حياة أو موت!!

معركة بين إيمان وكفر!!

معركة بين حق وباطل!!

معركة بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان!!

معركة بين كليم الله موسى عليه السلام، وبين أعتى الجبابرة في زمانه ألا وهو فرعون العاتي الطاغي الباغي المستكبر المتطاول.

وعن الشهود، عن الحضور، فكما أسلفت موسى وهارون عليهما السلام ومعهما بعض بني إسرائيل يرقبون على تخوفٍ شديد نتيجة الأمور، والجانب الآخر الكافر هم الكثرة الكاثرة، وهم أيضًا العتاة والجبابرة.

والرحمن جل وعلا شهيد رقيب يسمع ويرى.

ولا شك أن الملائكة أيضًا حضور وتدعو لموسى عليه السلام بالنصر والتوفيق والعون والسداد!!

نصيحة موسى عليه السلام للسحرة

فماذا صنع موسى عليه السلام مع السحرة؟؟ وماذا قال لهم؟ وما هو ردّ فعلهم، لقد قدم لهم موسى عليه السلام النصح وذكرهم بالله وبوحدانيته، وحذرهم من الافتراء والكذب على الله.

وهكذا ينبغي أن يُذكرّ المعتدي والمفتري قال لهم موسى عليه السلام: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ لا تقولوا كذبًا على الله ولا تختلقوا الكذب وتنسبوه إلى الله، ولا تعتقدوا أن لكم ربًّا سوى الله عز وجل، فيهلككم الله بعذاب ويستأصلكم جميعًا، وقد خاب من كذب على الله وافترى عليه، فتشاوروا فيما بينهم وتجاذبوا الآراء والأقوال وتناجوا فيما بينهم سرًّا قائلين لبعضهم: ما هذان إلا ساحران يريدان أن يخرجاكم من بلادكم بما أتيا به من السحر وأرادا أن يصرفا وجوه الفضلاء إليها، وأرادا أن يأخذا وجهاء القوم في صفوفهما، فقوله: ﴿بِطَرِيقَتِكُمُ﴾ على رأي الجمهور من المفسرين بوجهائكم وسادتكم وأصحاب رؤوس الأموال وقال كثير من العلماء: إنهم بنو إسرائيل فإنهم، وإن كان مُستذلين مستخدمين ممتهنين لكن كان عندهم أموال وكان لهم شرفٌ عظيم بنسبتهم إلى الأنبياء فهم أحفاد الأنبياء، وكان الناس يعرفون لهم ذلك ويقرون لهم بذلك أما قوله: ﴿الْمُثْلَىٰ﴾ فمعناه الذين هم أمثل القوم وأفضل القوم.

هذا ومن العلماء من ذهب إلى أن قوله: ﴿بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ طريقتكم الحسنة في السحر فسيغلبكم موسى وهارون عليها. وقد أورد الطبري رحمه الله هذا القول ولم يقل به.

أما قولهم: ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾ أي: اعزموا أمركم وأحضروا ما استطعتم من السحر واتفقوا ولا تختلفوا بل كونوا متحدين وتعالوا في صفٍ واحدٍ لإرهاب خصمكم.

أما قوله: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ﴾ فمعناه وقد فاز بمطلوبه من علا وغلب، والله تعالى أعلى وأعلم.

وبنحو ما ذكرتُ قال أهل العلم.

فقال الطبري رحمه الله في تأويل قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾﴾.

يقول تعالى ذكره: قال موسى للسحرة لما جاء بهم فرعون: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ يقول: لا تختلقوا على الله كذبًا، ولا تتقوّلوه ﴿فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ﴾ فيستأصلكم بهلاك فيبيدكم.

وقوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى (٦١)﴾ يقول: ولم يظفر من يخلق كذبًا، ويقوله بكذبه ذلك بحاجته التي طلبها به، ورجا إدراكها به.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى (٦٢) قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾.

يقول تعالى ذكره: فتنازع السحرة أمرهم بينهم.

وكان تنازعهم أمرهم بينهم فيما ذكر أن قال بعضهم لبعض: ما حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، قوله: ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾ قال السحرة بينهم: إن كان هذا ساحرًا فإنا سنغلبه، وإن كان من السماء فله أمر.

وقال آخرون: بل هو أن بعضهم قال لبعض: ما هذا القول بقول ساحر.

وقوله: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾ يقول تعالى ذكره: وأسرّوا السحرة المناجاة بينهم.

ثم اختلف أهل العلم في السرار الذي أسروه، فقال بعضهم: هو قول بعضهم لبعض: إن كان هذا ساحرًا فإنا سنغلبه، وإن كان من أمر السماء فإنه سيغلبنا.

وأورد آثار منها أثر السدي بسندٍ حسن عنه: ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾ من دون موسى وهارون، قالوا في نجواهم ﴿إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى (٦٣)﴾ قالوا: ﴿إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾، يَعْنُونَ بقولهم: إن هذان - موسى وهارون- لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما.

وقوله: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ يقول: ويغلبا على ساداتكم وأشرافكم،

يقال: هو طريقة قومه ونظورة قومه، ونظيرتهم إذا كان سيدهم وشريفهم والمنظور إليه، يقال ذلك للواحد والجمع، وربما جمعوا، فقالوا: هؤلاء طرائق قومهم، ومنه قول الله تبارك وتعالى: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾[الجن: ١١]وهؤلاء نظائر قومهم

وأما قوله: ﴿ٱلْمُثْلَىٰ﴾ فإنها تأنيث الأمثل، يقال للمؤنث، خذ المثلى منهما.

وفي المذكر: خذ الأمثل منهما، ووحدت المثلى، وهي صفة ونعت للجماعة، كما قيل: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٨]، وقد يحتمل أن يكون المُثلى أنثت لتأنيث الطريقة.

وقال آخرون: معنى ذلك: ويغيرا سنتكم ودينكم الذي أنتم عليه، من قولهم: فلان حسن الطريقة.

وأورد بإسناد صحيح عن ابن زيد، في قوله: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾﴾ قال: يذهبا بالذي أنتم عليه، يغيرا ما أنتم عليه، وقرأ: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ [غافر: ٢٦] قال: هذا قوله: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾﴾، وقال: يقول طريقتكم اليوم طريقة حسنة، فإذا غيرت ذهبت هذه الطريقة.

ولكن الطبري تعقب قول ابن زيد هذا فقال: وهذا القول الذي قاله ابن زيد في قوله: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾﴾ وإن كان قولًا له وجه يحتمله الكلام، فإن تأويل أهل التأويل خلافه، فلا أستجيز لذلك القول به.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾.

اختلفت القراء في قراءة قوله: ﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ﴾ فقرأته عامة قرّاء المدينة والكوفة: ﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ﴾ بهمز الألف من ﴿فَأَجْمِعُوا۟﴾، ووجّهوا معنى ذلك إلى: فأحكموا كيدكم، واعزموا عليه، من قولهم: أجمع فلان الخروج، وأجمع

على الخروج.

قال أبو جعفر: والصواب في قراءة ذلك عندنا همز الألف من أجمع، لإجماع الحجة من القرّاء عليه، وأن السحرة هم الذين كانوا به معروفين، فلا وجه لأن يقال لهم: أجمعوا ما دعيتم له مما أنتم به عالمون؛ لأن المرء إنما يجمع ما لم يكن عنده إلى ما عنده، ولم يكن ذلك يوم تزيد في علمهم بما كانوا يعملونه من السحر، بل كان يوم إظهاره، أو كان متفرّقًا مما هو عنده، بعضه إلى بعض، ولم يكن السحر متفرّقًا عندهم فيجمعونه، وأما قوله: ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾ فغير شبيه المعنى بقوله: ﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ﴾ وذلك أن فرعون كان هو الذي يجمع ويحتفل بما يغلب به موسى مما لم يكن عنده مجتمعًا حاضرًا، فقيل: فتولى فرعون فجمع كيده.

وقوله: ﴿ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا﴾ يقول: احضروا وجيئوا صفًّا، والصفّ هاهنا مصدر، ولذلك وحد، ومعناه: ثم ائتوا صفوفًا، وللصفّ في كلام العرب موضع آخر، وهو قول العرب: أتيت الصفّ اليوم، يعني به: المصلى الذي يصلى فيه.

وقوله: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ يقول: قد ظفر بحاجته اليوم من علا على صاحبه فقهره.

وقال ابن كثير رحمه الله:

فـ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: لا تُخَيِّلُوا للناس بأعمالكم إيجاد أشياء لا حقائق لها، وأنها مخلوقة، وليست مخلوقة، فتكونون قد كذبتم على الله، ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ أي: يهلككم بعقوبة هلاكًا لا بقية به، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ قيل: معناه: أنهم تشاجروا فيما بينهم فقائل يقول: ليس هذا بكلام ساحر، إنما هذا كلام نبي. وقائل يقول: بل هو ساحر. وقيل غير ذلك، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ أي: تناجوا فيما بينهم، ﴿قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾

هذه لغة لبعض العرب، جاءت هذه القراءة على إعرابها، ومنهم من قرأ: (إِنْ هَذَيْنِ لَسَاحِرَانِ) وهذه اللغة المشهورة، وقد توسع النحاة في الجواب عن القراءة الأولى بما ليس هذا موضعه.

والغرض أن السحرة قالوا فيما بينهم: تعلمون أن هذا الرجل وأخاه -يعنون: موسى وهارون- ساحران عالمان خبيران بصناعة السحر، يريدان في هذا اليوم أن يغلباكم وقومكم ويستوليا على الناس، وتتبعهما العامة ويقاتلا فرعون وجنوده، فينتصرا عليه ويخرجاكم من أرضكم.

وقوله: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ أي: ويستبدا بهذه الطريقة، وهي السحر، فإنهم كانوا معظَّمين بسببها، لهم أموال وأرزاق عليها، يقولون: إذا غلب هذان أهلكاكم وأخرجاكم من الأرض، وتفردا بذلك، وتمحضت لهما الرياسة بها دونكم.

وقد تقدم في حديث الفتون عن ابن عباس في قوله: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ يعني: ملكهم الذي هم فيه والعيش.

وقوله: ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾ أي: اجتمعوا كلكم صفًّا واحدًا، وألقوا ما في أيديكم مرة واحدة، لتبهروا الأبصار، وتغلبوا هذا وأخاه، ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾ أي: منا ومنه، أما نحن فقد وعدنا هذا الملك العطاء الجزيل، وأما هو فينال الرياسة العظيمة.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ هذا من قول فرعون للسحرة؛ أي: غرضهما إفساد دينكم الذي أنتم عليه؛ كما قال فرعون: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]. ويقال فلان حسن الطريقة أي: حسن المذهب. وقيل: طريقة القوم أفضل القول؛ وهذا الذي ينبغي أن يسلكوا طريقته ويقتدوا به؛ فالمعنى: ويذهبا

بسادتكم ورؤسائكم؛ استمالة لهم. أو يذهبا ببني إسرائيل وهم الأماثل وإن كانوا خولًا لكم لما يرجعون إليه من الانتساب إلى الأنبياء. أو يذهبا بأهل طريقتكم فحذف المضاف. و﴿ٱلْمُثْلَىٰ﴾ تأنيث الأمثل؛ كما يقال الأفضل والفضلى. وأنث الطريقة على اللفظ، وإن كان يراد بها الرجال. ويجوز أن يكون التأنيث على الجماعة. وقال الكسائي: ﴿بِطَرِيقَتِكُمُ﴾ بسنتكم وسمتكم. و﴿ٱلْمُثْلَىٰ﴾ نعت كقولك امرأة كبرى. تقول العرب: فلان على الطريقة المثلى يعنون على الهدى المستقيم.

قوله تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ﴾ الإجماع الإحكام والعزم على الشيء. تقول: أجمعت الخروج وعلى الخروج أي: عزمت.

وبعد فالذي يظهر أن السحرة لم ينتفعوا بموعظة موسى عليه السلام قبل بداية المعركة، بل أصروا على المُضي قُدمًا في معركتهم الحاسمة بزعمهم مع موسى عليه السلام، وقد غرهم ما عندهم من العلم بالسحر، وغرّهم بالله الغرور.

فقالوا: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ [طه: ٦٣] على ما سبق بيانه في تفسير الآيات، ثم إن بدؤوا في التحدي وتخيير موسى عليه السلام بأن يبدأ هو بإلقاء ما عنده، أم أنهم يبدؤونه أولًا!!، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على ثقتهم بما هم عليه وثقتهم بالسحر الذي سيأتون به، فقد كانوا سحرة مهرة.

وكما سبقت الإشارة إليه، فإنهم أخذوا العهود والمواثيق على فرعون أن يُكرموا وأن ينالوا عظيم الأجور إن هم انتصروا على موسى عليه السلام، ووعدهم فرعون بذلك ومنَّاهم الأماني ووعدهم الوعود بعد الوعود!!!

﴿قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾.

أرجع فأقول: إنهم خيَّروا موسى عليه السلام ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾

وقالوا أيضًا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ٦٥ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ٦٦ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ٦٧ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٦٨ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ٦٩ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ٧٠﴾.

والمعنى -والله أعلم- أن السحرة قالوا لموسى عليه السلام لما حضروا للقاء مع موسى ﷺ أمام الجموع الغفيرة من البشر الذين أتوا للمشاهدة والنظر، وفي حضور فرعون وملئه، وبعد أن تشاوروا فيما بينهم، قالوا لموسى عليه السلام: يا موسى إما أن تلقي عصاك وإما أن نكون نحن الملقين أولًا، خيَّروا موسى عليه السلام فقال لهم موسى عليه السلام: بل ألقوا عصيَّكم وحبالكم وما معكم، فألقوها وجاءوا بسحرٍ عظيم سحروا به أعين الناس وأخافوهم واسترهبوهم، وخيِّل إلى موسى عليه السلام من شدة هذا السحر الذي أتى به هؤلاء السحرة أنها أي: العصي والحبال التي ألقوها أنها تسعى تتحرك وتضطرب حقيقة، وما ذاك إلا تخييل، فتسرب الخوف إلى موسى ﷺ فوجد موسى في نفسه خوفًا وأحس به وتسرب إليه ما تسرب إلى البشر من الأمور التي جُبل عليها البشر، وقيل: خاف أن يتفرق الناس قبل أن يُلقي عصاه، فأوحى الله عز وجل إليه: ﴿لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾، إنك أنت الغالب لهم في الدنيا، والأعلى منزلة يوم القيامة وألق العصا التي في يمينك تلتهم وتبتلع وبسرعة ما أتى به هؤلاء السحرة إن الذي صنعوه إنما هو باطل وخداع وتمويه من أعمال السحرة ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ﴾ ولا يفوز بمطلوبه ولا ينجو من مرهوبه في أي مكان كان فعند ذلك ولما رأى السحرة ما رأوه من هذه المعجزة الهائلة والآية العظيمة، خروا لله عز وجل سجدًا لما علموه من الحق، ولما شاهدوه من عظيم الآيات، وقالوا مُقرِّين مصرين متبعين ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾.

فكانوا عما قليل سحرة كفرة، فتحولوا في لحظات إلى كرامٍ أتقياء بررة. فسبحان الله مقلب القلوب والأبصار.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: فأجمعت السحرة كيدهم، ثم أتوا صفًّا فقالوا لموسى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ﴾ وترك ذكر ذلك من الكلام اكتفاء بدلالة الكلام عليه.

وأورد الطبري اختلافًا في عدد السحرة بما لا طائل تحته ولا دليل عليه ثم قال:

وذلك أن معنى الكلام: اختر يا موسى أحد هذين الأمرين: ﴿إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ﴾ قبلنا، ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ﴾، ولو قال قائل: هو رفع، كان مذهبًا، كأنه وجَّهه إلى أنه خبر، كقول القائل:

فَسِيرَا فإمَّا حاجَةً تَقْضِيانها ... وإمَّا مَقِيل صَالِحٌ وصَدِيقُ

وقوله: ﴿قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ﴾ يقول تعالى ذكره: قال موسى للسحرة: بل ألقوا أنتم ما معكم قبلي. وقوله: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ٦٦﴾، وفي هذا الكلام متروك، وهو: فألقوا ما معهم من الحبال والعصيّ، فإذا حبالهم، ترك ذكره استغناء بدلالة الكلام الذي ذكر عليه عنه، وذُكر أن السحرة سحروا عين موسى وأعين الناس قبل أن يلقوا حبالهم وعصيهم، فخيل حينئذٍ إلى موسى أنها تسعى.

يعني تعالى ذكره بقوله: فأوجس في نفسه خوفا موسى فوجده.

وقوله: ﴿قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ يقول تعالى ذكره: قلنا لموسى إذ أوجس في نفسه خيفة: ﴿لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ على هؤلاء السحرة، وعلى فرعون وجنده، والقاهر لهم ﴿وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ﴾ يقول: وألق عصاك تبتلع حبالهم وعصيهم التي سحروها حتى خيل إليك أنها تسعى.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى مخبراً عن السحرة حين توافقوا هم وموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أنهم قالوا

لموسى: ﴿إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ﴾ أي: أنت أولًا ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ٦٥ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ﴾ أي: أنتم أولًا ليُرى ما تصنعون من السحر، وليظهر للناس جلية أمرهم، ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ﴾. وفي الآية الأخرى أنهم لما ألقوا ﴿وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ﴾ [الأعراف: ١١٦]، وقال هاهنا: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ﴾.

وذلك أنهم أودعوها من الزئبق[1] ما كانت تتحرك بسببه وتضطرب وتميد، بحيث يخيل للناظر أنها تسعى باختيارها، وإنما كانت حيلة، وكانوا جمًّا غفيرًا وجمعًا كبيرًا فألقى كل منهم عصًا وحبلًا حتى صار الوادي ملآن حيات يركب بعضها بعضًا.

وقوله: ﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ﴾ أي خاف على الناس أن يَفْتِنوا بسحرهم ويغتروا بهم قبل أن يلقي ما في يمينه، فأوحى الله تعالى إليه في الساعة الراهنة أن ﴿وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ يعني: عصاه، فإذا هي ﴿تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ﴾ وذلك أنها صارت تِنِّينًا عظيمًا هائلًا ذا عيون وقوائم وعنق ورأس وأضراس، فجعلت تتبع تلك الحبال والعصي حتى لم تبق منها شيئًا إلا تلقفته وابتلعته، والسحرة والناس ينظرون إلى ذلك عيانًا جَهْرة، نهارًا ضحوة. فقامت المعجزة، واتضح البرهان، وبطل ما كانوا يعملون؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ﴾.

فلما عاين السحرة ذلك وشاهدوه، ولهم خبرة بفنون السحر وطرقه ووجوهه، علموا علم اليقين أن هذا الذي فعله موسى ليس من قبيل السحر والحيل، وأنه حق لا مرية فيه، ولا يقدر على هذا إلا الذي يقول للشيء كن

---

(١) كذا قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ، وليس للزئبق هذا ذكرٌ في هذا المقام في الكتاب ولا في السنة، فالله أعلم.

فيكون، فعند ذلك وقعوا سُجَّدًا لله وقالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء: ٤٧، ٤٨].

ولهذا قال ابن عباس، وعُبَيد بن عُمَير: كانوا أول النهار سحرة، وفي آخر النهار شهداء بررة.

انتصار الحق

فهكذا انتهى هذا المشهد المُثير وانتهت هذه المعركة الحاسمة الفاصلة التي جُمعت لها الجموع من أنحاء مصر والتي دُعي إليها السحرة من أرجائها!!!

هكذا انتهت هذه المعركة الفاصلة التي جُمع لها الناس يوم العيد وشاهدوها وقت الضحى، حيث لا غش ولا تضليل ولا غموض ولا التباس!!

انتهت لصالح موسى عليه السلام وأخيه هارون عليه السلام ولصالح بني إسرائيل!

انتهت بنصرة الحق على الباطل، فقد قذف بالحق على الباطل فدفعه فإذا هو زاهق!!!

بطل السحر، وبطلت الشعوذة وذهب المكر والخداع والتضليل!!

لقد انتهى بمشهد عظيم.

انتهى بسجود السحرة لرب العالمين رب موسى وهارون!!

فسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر لقد كان السحرة منذ وقت قليل يطلبون الأجر من فرعون ويقسمون بعزته ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾.

[الشعراء: ٤٤]

أما الآن فتبدلت الأحوال وتغيرت القلوب وسبحان من يقلبها.

لقد منَّ الله عزوجل على السحرة بمنَّة عظيمة ألا وهي قبول الحق.

ولقد قذف الله الإيمان في قلوبهم، وأي إيمان؟!!

إنه قدرٌ عظيم من الإيمان!!

وقدر عظيم من الإذعان للحق!!

فخروا جميعًا سجدًا لرب العالمين.

قائلين أمام الملأ، أمام الجماهير الحاشدة ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء: ٤٧، ٤٨].

فماذا كان؟!!

ماذا كان من فرعون وملئه؟!!

لقد اتهم السحرة بالتآمر والخداع والمكر والاحتيال والاتفاق مع موسى عليه السلام على إخراج الأهالي من البلاد وبدأ يهدد ويتوعد لقد قال وهذا في سورة الأعراف: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ١٢٣ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾

[الأعراف: ١٢٣، ١٢٤]

موقف فرعون من السحرة بعد انتهاء المعركة

وقال جل ذكره في سورة طه في بيان ما قاله فرعون للسحرة، وما أجابوه به: ﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ٧١ قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ٧٢ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ٧٣ إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ٧٤ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ

عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ ﴾ [طه: ٧١-٧٦].

وعن معاني مفرداتها:

الكلمة	معناها
﴿ءَامَنتُم لَهُۥ﴾	صدقتموه واتبعتموه وأقررتموه على ما دعاكم إليه وجاءكم به.
﴿مِّنْ خِلَٰفٍ﴾	المراد قطع اليد اليمنى مع الرجل اليسرى أو قطع اليد اليسرى مع الرجل اليمنى.
﴿وَأَبْقَىٰ﴾	أدوم عذابًا.
﴿نُّؤْثِرَكَ﴾	نفضلك ونعبدك ونفضل عبادتك.
﴿ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾	الحجج الواضحات والدلائل النيرات والمعجزات الباهرات.
﴿فَطَرَنَا﴾	خلقنا لأول مرة.
﴿فَٱقْضِ﴾	افعل- فاصنع- فاحكم.
﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾	أدوم ثوابًا وأبقى ثوابًا (أو أدوم عذابًا لمن كفر) أي: عذابه أبقى وأدوم، وكذلك ثوابه أدوم وأبقى إن أثاب وكافأ.
﴿يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾	يبعث يوم القيامة.
﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾	اجترم الكفر فجاء كافرًا.
﴿تَزَكَّىٰ﴾	حدائق وبساتين للإقامة.
	تطهر من الذنوب والكفر والآثام، وآمن.

أما عن المعنى الإجمالي للآيات المتقدمة: فأقول وبالله التوفيق:

إن فرعون لعنه الله لما ظهر له من أمر الله ما ظهر وآمن سحرتُه وخروا لله سجدًا وقالوا مصدقين بنبوة موسى عليه السلام ورسالته وكذا رسالة أخيه هارون

ونبوته وقالوا لفرعون وأمام الملأ جميعًا آمنا برب هارون وموسى، توعدهم فرعون أشد التوعد وهددهم أشد تهديد قائلًا ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ صدقتم به واتبعتموه قبل أن ﴿ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ قبل أن أُعطيكم الإذن بالإيمان وكأن عدو الله هو المتسلط على القلوب، وأنى له ذلك؟! وهو لا يملك أمر نفسه ولا أمر زوجته ثم بدأ يتهمهم اتهامات باطلة كقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ﴾ لعظيمكم ورئيسكم ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾.

وما كان موسى عليه السلام قد التقى بهم قبل هذا المجلس وقبل تلك الواقعة، ثم استمر فرعون مُهددًا متوعدًا فقال: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ أي: لأقطعن اليد اليمنى مع الرجل اليسرى أو اليد اليسرى مع الرجل اليمنى وليس هذا فقط بل: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ أي: على جذوع النخل، قيل: إن حروف الجر تتناوب فتأتي (في) بمعنى (على)[1] و(عن) بمعنى(بـ) وهكذا كما في قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ على قول للمفسرين فسأل عنه خبيرًا وقيل فسأل خبيرًا به وهو رسول الله أرجع فأقول، وقال بعض المفسرين من شدة الصلب كأنه أدخلهم في جذوع النخل ثم قال فرعون: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ﴾ أيها السحرة ﴿أَيُّنَآ﴾ أنا أم موسى ﴿أَشَدُّ عَذَابًا﴾ في الدنيا ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ أدوم عذابًا فيها فعندها قال السحرة مقالتهم التي سُطرت في صحائف أعمالهم، وسجلت بعد في التأريخ، وفي قرآن يتلى إلى يوم الدين ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ﴾ لن نفضلك ونفضل عبادتك واتباعك ﴿عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ على الحجج الواضحات والدلالات النيرات والمعجزات الباهرات، تلك التي أتانا بها موسى عليه السلام من عند ربه عز وجل أما

---

(١) وألفت النظر هنا إلى قولين لأهل العلم في مثل هذا عمومًا فقوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]، هل تتناوب حروف الجر، وتكون (في) بمعنى (على) أم أن الفعل يتضمن معنى فعل آخر، ويكون المعنى مثلًا، ولمزيد انظر كتابي أصول التفسير (ولأضعنكم في جذوع النخل)، أو (ولأجعلنكم في جذوع النخل).

قولهم: ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ فيحتمل أن يكون معناه، ولن نؤثرك على الذي فطرنا وهو الله أي: ولن نفضلك على الله عَزَّوَجَلَّ الذي خلقنا أول مرة ولن نفضل عبادتك على عبادته عَزَّوَجَلَّ.

ويحتمل معنى آخر، وهو أنهم أقسموا بالذي فطرهم.

أما قولهم: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ أي: احكم بالذي أنت به حاكم في هذه الحياة الدنيا.

﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا﴾ صدقنا بالله عَزَّوَجَلَّ خالقنا وربنا وإلهنا ولن نعبد غيره ﴿لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾ ليمحو عنا الجرائم والشرك والكفر الذي كنا فيه وكذا ليغفر لنا السحر الذي أمرتنا بتعلمه.

والله عَزَّوَجَلَّ ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ الله خير منك وعبادته خيرٌ من عبادتك وطاعته خير من طاعتك وثوابه خيرٌ من ثوابك ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ فهو حي لا يموت وأنت تموت، وثوابه أبقى وأدوم من ثوابك وكذا إذا عاقب فعقوبته أدوم من عقوبة غيره.

وهنا سؤال: هل كان السحرة مكرهين على السحر؟

وجوابه: أجاب بعض أهل العلم على ذلك بأن قال: إن فرعون كان قد أرسل بعض الغلمان لتعلم السحر وأكرههم على ذلك.

وقال بعض العلماء إن ﴿أَكْرَهْتَنَا﴾ المراد بها هنا أمرتنا أن نأتي من السحر، وألزمتنا به.

أما قوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا...﴾ هل هو من قول السحرة أم أنه قول الله عَزَّوَجَلَّ.

فلأهل العلم في ذلك وجهان.

أحدهما: أنه قول الله عَزَّوَجَلَّ، وقد انتهى كلام السحرة المؤمنون عند قولهم: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾.

الثاني: أنه استمرار لقول السحرة، والقول الأول أظهر، والله أعلم.

أما عن معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ ...﴾ الآيات.

فحاصل المعنى والله أعلم أنه من يلقى ربَّه عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة وقد اجترم الكفر والشرك فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا، فلا هو مات واستراح، ولا هو يحيى الحياة الهادئة بل هو في عذاب مقيم كما قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ ومن يأته مؤمنًا وصاحب الإيمان بالعمل الصالح فأولئك لهم الدرجات العلى في الجنان، التي هي ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ بساتين وحدائق للإقامة الدائمة تجري من تحت أشجارها الأنهار أنهار اللبن وأنهار الخمر وأنهار العسل وأنهار الماء ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ ماكثين فيها لا يتحولون عنها، وذلك جزاء من تطهر من الشرك والكفر والجرائم.

وبنحو ما ذكرت قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ يقول جلّ ثناؤه: وقال فرعون للسحرة: أصدقتم وأقررتم لموسى بما دعاكم إليه من قبل أن أطلق ذلك لكم ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ﴾ يقول: إن موسى لعظيمكم ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾.

وقوله: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ يقول: فلأقطعن أيديكم وأرجلكم مخالفا بين قطع ذلك، وذلك أن يقطع يمنى اليدين ويسرى الرجلين، أو يسرى اليدين، ويمنى الرجلين، فيكون ذلك قطعًا من خلاف، وكان فيما ذُكر أوّل من فعل ذلك فرعون، وقد ذكرنا الرواية بذلك. وقوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ يقول: ولأصلبنكم على جذوع النخل، كما قال الشاعر:

هُمْ صَلَبُوا العَبْدِيّ فِي جِذعِ نَخْلَةٍ ... فَلا عَطَسَتْ شَيْبان إلا بأجْدَعا

يعني على، جذع نخلة، وإنما قيل: في جذوع، لأن المصلوب على الخشبة يرفع في طولها، ثم يصير عليها، فيقال: صلب عليها.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة، قوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ لما رأى

السحرة ما جاء به عرفوا أنه من الله فخروا سجدًا، وآمنوا عند ذلك، قال عدو الله ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ﴾... الآية.

وأورد بإسنادٍ حسن عن السديّ، قال فرعون: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ فقتلهم وقطعهم، كما قال عبد الله بن عباس حين قالوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ وقال: كانوا في أوّل النهار سحرة، وفي آخر النهار شهداء.

وقال: وقوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ يقول: ولتعلمنَّ أيها السحرة أينا أشدّ عذابا لكم، وأدوم، أنا أو موسى.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾.

يقول تعالى ذكره: قالت السحرة لفرعون لما توعدهم بما توعدهم به ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ﴾ فنتبعك ونكذب من أجلك موسى ﴿عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ يعني من الحجج والأدلة على حقيقة ما دعاهم إليه موسى ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ يقول: قالوا: لن نؤثرك على الذي جاءنا من البينات، وعلى الذي فطرنا، ويعني بقوله: ﴿فَطَرَنَا﴾ خلقنا، فالذي من قوله: ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ خفض على قوله: ﴿مَا جَاءَنَا﴾ وقد يحتمل أن يكون قوله: ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ خفضا على القسم، فيكون معنى الكلام: لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والله، وقوله: ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾ يقول: فاصنع ما أنت صانع، واعمل بنا ما بدا لك ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ يقول: إنما تقدر أن تعذّبنا في هذه الحياة الدنيا التي تفنى، ونصب الحياة الدنيا على الوقت وجعلت إنما حرفًا واحدًا.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾ يقول تعالى ذكره: إنا أقررنا بتوحيد

ربنا، وصدقنا بوعده ووعيده، وأن ما جاء به موسى حق ﴿لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾ يقول: ليعفو لنا عن ذنوبنا فيسترها علينا ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ يقول: ليغفر لنا ذنوبنا، وتعلمنا ما تعلمناه من السحر، وعملنا به الذي أكرهتنا على تعلُّمه والعمل به، وذُكر أن فرعون كان أخذهم بتعليم السحر.

قال ابن زيد، في قوله: ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ قال: أمرهم بتعلم السحر، قال: تركوا كتاب الله، وأمروا قومهم بتعليم السحر.

﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ قال: أمرتنا أن نتعلمه.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ يقول: والله خير منك يا فرعون جزاء لمن أطاعه، وأبقى عذابا لمن عصاه وخالف أمره.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى مخبراً عن كفر فرعون وعناده وبغيه ومكابرته الحق بالباطل، حين رأى ما رأى من المعجزة الباهرة والآية العظيمة، ورأى الذين قد استنصر بهم قد آمنوا بحضرة الناس كلهم وغُلِب كل الغلب -شرع في المكابرة والبهت، وعدل إلى استعمال جاهه وسلطانه في السحرة، فتهددهم وأوعدهم وقال: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ أي: صدقتموه ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أي: وما أمرتكم بذلك، وافتتم عليّ في ذلك. وقال قولا يعلم هو والسحرة والخلق كلهم أنه بَهْت وكذب: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ أي: أنتم إنما أخذتم السحر عن موسى، واتفقتم أنتم وإياه عليّ وعلى رعيتي، لتظهروه، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٣].

ثم أخذ يتهددهم فقال: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ أي: لأجعلنكم مثلة ولأقتلنكم ولأشهرنكم.

وقوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ أي: أنتم تقولون: إني وقومي على ضلالة، وأنتم مع موسى وقومه على الهدى. فسوف تعلمون من يكون له

العذاب ويبقى فيه.

فلما صال عليهم بذلك وتوعدهم، هانت عليهم أنفسهم في الله عَزَّوَجَلَّ، و﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: لن نختارك على ما حصل لنا من الهدى واليقين. ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ يحتمل أن يكون قسمًا، ويحتمل أن يكون معطوفًا على البينات.

يعنون: لا نختارك على فاطرنا وخالقنا الذي أنشأنا من العدم، المبتدئ خلقنا من الطين، فهو المستحق للعبادة والخضوع لا أنت.

﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ أي: فافعل ما شئت وما وَصَلَت إليه يدك، ﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٧٢﴾﴾ أي: إنما لك تَسَلُّط في هذه الدار، وهي دار الزَّوال ونحن قد رغبنا في دار القرار.

﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾ أي: ما كان منا من الآثام، خصوصًا ما أكرهتنا عليه من السحر لنعارض به آية الله تعالى ومعجزة نبيه.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ﴾ أي: خير لنا منك ﴿وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾ أي: أدوم ثوابًا مما كنت وعدتنا ومنيتنا. وهو رواية عن ابن إسحاق، رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقال محمد بن كعب القُرَظِي: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ﴾ أي: لنا منك إن أطيع، ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ أي: منك عذابًا إن عُصِيَ.

وروي نحوه عن ابن إسحاق أيضًا:

والظاهر أن فرعون -لعنه الله- صمم على ذلك وفعله بهم، رحمهم الله؛ ولهذا قال ابن عباس وغيره من السلف: أصبحوا سحرة، وأمسَوْا شهداء.

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (أضواء البيان):

﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾.

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن فرعون لعنه الله لما قال للسحرة ما قال لما آمنوا، قالوا له: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾ يعنون ذنوبهم السالفة

كالكفر وغيره من المعاصي ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ أي ويغفر لنا ما أكرهتنا عليه من السحر. وهذا الذي ذكره عنهم هنا أشار له في غير هذا الموضع. كقوله تعالى في «الشعراء» عنهم: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٥٠-٥١]، وقوله عنهم في «الأعراف»: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦]. وفي آية «طه» هذه سؤال معروف، وهو أن يقال: قولهم ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ يدل على أنه أكرههم عليه، مع أنه دلت آيات أخر على أنهم فعلوه طائعين غير مكرهين، كقوله في «طه»: ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ [طه: ٦٢-٦٤]. فقولهم: ﴿فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا﴾ صريح في أنهم غير مكرهين.

وكذلك قوله عنهم في «الشعراء»: ﴿قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٤١-٤٢]، وقوله في «الأعراف»: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٣-١١٤] فتلك الآيات تدل على أنهم غير مكرهين.

وللعلماء عن هذا السؤال أجوبة معروفة:

(منها): أنه أكرههم على الشخوص من أماكنهم ليعارضوا موسى بسحرهم، فلما أكرهوا على القدوم وأمروا بالسحر أتوه طائعين، فإكراههم بالنسبة إلى أول الأمر، وطوعهم بالنسبة إلى آخر الأمر، فانفكت الجهة وبذلك ينتفي التعارض، ويدل لهذا قوله: ﴿وَٱبْعَثْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ [الشعراء: ٣٦]، وقوله: ﴿وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١١].

(ومنها): أنه كان يكرههم على تعليم أولادهم السحر في حال صغرهم، وأن ذلك هو مرادهم بإكراههم على السحر. ولا ينافي ذلك أنهم فعلوا ما فعلوا من السحر بعد تعلمهم وكبرهم طائعين.

(ومنها): أنهم قالوا لفرعون: أرنا موسى نائمًا ففعل فوجدوه تحرسه عصاه، فقالوا: ما هذا بسحر الساحر! لأن الساحر إذا نام بطل سحره. فأبى إلا أن يعارضوه، وألزمهم بذلك. فلما لم يجدوا بدًّا من ذلك فعلوه طائعين.

وأظهرها عندي الأول، والعلم عند الله تعالى.

وهل نفذ فرعون ما توعد به السحرة.

الله أعلم بذلك فهل سلموا مع موسى عليه السلام بعد أن أغرق الله عز وجل فرعون وآله أم أنهم أمسوا شهداء كما قال بعض أهل العلم كانوا أول النهار سحرة، فأصبحوا آخره شهداء بررة[1].

هذا، وقد قال الطبري رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ٧٤ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ٧٥ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ٧٦﴾.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره مخبرًا عن قيل السحرة لفرعون ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ﴾ من خلقه ﴿مُجۡرِمٗا﴾ يقول: مكتسبًا الكفر به، ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾ يقول: فإن له جهنم مأوى ومسكنا، جزاء له على كفره ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فتخرج نفسه ﴿وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ فتستقر نفسه في مقرها فتطمئن، ولكنها تتعلق بالحناجر منهم ﴿وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا﴾ موحدًا لا يُشرك به ﴿قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يقول: قد عمل ما أمره به ربه، وانتهى عما نهاه عنه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ﴾ يقول: فأولئك الذين لهم درجات الجنة العلى.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾.

---

(١) ولم يثبت بذلك خبرٌ عن النبي ﷺ.

يقول تعالى ذكره: ومن يأته مؤمنًا قد عمل الصالحات، فأولئك لهم الدرجات العلى. ثم بين تلك الدرجات العلى ما هي، فقال: هن ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ يعني: جنات إقامة لا ظعن عنها ولا نفاد لها ولا فناء ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ يقول: تجري من تحت أشجارها الأنهار ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ يقول: ماكثين فيها إلى غير غاية محدودة؛ فالجنات من قوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ مرفوعة بالردّ على الدرجات.

وقوله: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ مَن تَزَكَّىٰ﴾ يقول: وهذه الدرجات العُلى التي هي جنات عدن على ما وصف ﷻ ثواب من تزكى، يعني: من تطهر من الذنوب، فأطاع الله فيما أمره، ولم يدنس نفسه بمعصيته فيما نهاه عنه.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا﴾ قيل هو من قول السحرة لما آمنوا. وقيل: ابتداء كلام من الله ﷻ. والكناية في ﴿إِنَّهُۥ﴾ ترجع إلى الأمر والشأن. ويجوز إن من يأت، ومنه قول الشاعر:

إن من يدخل الكنيسة يومًا ... يلق فيها جآذرًا وظباء

أراد إنه من يدخل؛ أي إن الأمر هذا؛ وهو أن المجرم يدخل النار، والمؤمن يدخل الجنة. والمجرم: الكافر. وقيل: الذي يقترف المعاصي ويكتسبها. والأول أشبه؛ لقوله: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ وهذه صفة الكافر المكذب الجاحد - على ما تقدم بيانه في سورة «النساء» وغيرها - فلا ينتفع بحياته ولا يستريح بموته.

قال الشاعر:

ألا من لنفس لا تموت فينقضي ... شقاها ولا تحيا حياة لها طعم

وقيل: نفس الكافر معلقة في حنجرته كما أخبر الله تعالى عنه فلا يموت بفراقها، ولا يحيا باستقرارها. ومعنى: ﴿مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا﴾ من يأت موعد ربه.

ومعنى ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا﴾ أي: يمت عليه ويوافيه مصدقا به. ﴿قَدْ عَمِلَ﴾ أي: وقد عمل ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: الطاعات وما أمر به ونهى عنه. ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ أي: الرفيعة التي قصرت دونها الصفات. ودل قوله: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا﴾ على أن المراد بالمجرم المشرك.

قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ بيان للدرجات وبدل منها، والعدن الإقامة. ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: من تحت غرفها وسررها ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ من الخمر والعسل واللبن والماء. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: ماكثين دائمين. ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: من تطهر من الكفر والمعاصي. ومن قال هذا من قول السحرة قال: لعل السحرة سمعوه من موسى أو من بني إسرائيل إذ كان فيهم بمصر أقوام، وكان فيهم أيضًا المؤمن من آل فرعون.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الظاهر من السياق أن هذا من تمام ما وعظ به السحرة لفرعون، يحذرونه من نقمة الله وعذابه الدائم السرمدي، ويرغبونه في ثوابه الأبدي المخلد، فقالوا: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾ أي: يلقى الله يوم القيامة وهو مجرم، ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ كقوله: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: ٣٦]، وقال: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلى: ١١-١٣]، وقال تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

وأورد ما أخرجه[1] أحمد ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «**أما أهل النار الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ولكن ناس تصيبهم النار بذنوبهم، فتميتهم إماتة، حتى إذا صاروا فحمًا، أذن في الشفاعة، جيء بهم ضبائر، ضبائر، فبُثُّوا على أنهار الجنة، فيقال: يا أهل الجنة، أفيضوا عليهم فينبتون**

(١) أحمد (٣/ ١١)، ومسلم (٣٠٦).

نبات الحبة تكون في حميل السيل». فقال رجل من القوم: كأن رسول الله ﷺ كان بالبادية.

وقوله: ﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أي: ومن لقي ربه يوم المعاد مؤمن القلب، قد صدق ضميره بقوله وعمله، ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴾ أي: الجنة ذات الدرجات العاليات، والغرف الآمنات، والمساكن الطيبات.

وقوله: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ ﴾ أي: إقامة وهو بدل من الدرجات العلى، ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ أي: ماكثين أبدا، ﴿ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ أي: طهر نفسه من الدنس والخبث والشرك، وعبد الله وحده لا شريك له، وصدق المرسلين فيما جاءوا به من خَبَر وطلب.

عرضٌ وبيانٌ للمعركة الحاسمة بسياق آخر من سورة الشعراء

قال الله تعالى:

﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٣٨-٥١]

وهذه معاني كلمات الآيات السابقة:

الكلمة	معناها
﴿لِمِيقَٰتِ﴾	لوقت
﴿مَّعْلُومٍ﴾	مُحددٌ - معروف
﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ﴾	كي نتبع
﴿لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾	لمن المقربين عندي ومن أهل مجالستي ومشورتي
﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾	بقوة فرعون - بشدته ومنعته
﴿تَلْقَفُ﴾	تخطف - تبتلع - تلتهم
﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾	ما يكذبون - ما يصرفون به الناس عن الحق إلى الباطل
﴿مِّنْ خِلَٰفٍ﴾	يعني اليد اليمنى مع الرجل اليسري
﴿لَا ضَيْرَ﴾	لا ضرر
﴿مُنقَلِبُونَ﴾	راجعون - مبعوثون يوم القيامة

أما عن المعنى الإجمالي للآيات المتقدمة، فأقول، وبالله التوفيق:

المعنى - والله أعلم - أن فرعون أرسل رسله لمدائن ملكه يجمع السحرة منها فاجتمعوا إليه والتقوا بنبي الله موسى عليه السلام واتفقوا معه على موعدٍ للقاء، وهو كما قال موسى عليه السلام إذ طلبوا منه ذلك بقولهم: ﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾ [طه: ٥٨]، وقال: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩].

فجمع السحرة لهذا اليوم الذي حُدد، وأمر الناس أيضًا أن يجتمعوا في هذا اليوم كي يتبعوا السحرة ويؤمنوا بهم ويصدقوهم في حال غلبتهم لموسى عليه السلام أي إن كانوا هم الغالبين موسى عليه السلام.

وأيضًا -كما يزعم فرعون- كي يتأكدوا من أن ما جاء به موسى عليه السلام إنما هو سحرٌ فماذا كان من السحرة لما جاءوا واجتمعوا؟!!

إنهم لم يجتمعوا لوجه الله حين اجتمعوا لقد اجتمعوا لدنيا يصيبونها بزعمهم فمن ثمَّ سألوا فرعون من الدنيا ما سألوه، فقالوا لفرعون لما جمعهم هل ستجعل لنا أجرًا إن نحن غلبنا موسى وأبطلنا ما جاء به، قال: نعم ولكم أكثر من ذلك فسأجعلكم من المقربين عندي، من أهل مجالستي ومن أهل مشورتي تُقبل شفاعتكم عندي ويسمع قولكم، فاجتمعوا عنده، والتقوا بموسى عليه السلام فعرضوا على موسى عرضًا وخيَّروه تخييرًا، فقالوا له: إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى، فقال لهم موسى عليه السلام: ﴿أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ ألقوا أنتم أولًا وهاتوا ما عندكم، فألقوا حبالهم وعصيهم، وأقسموا بعزة فرعون، بقوته وعظمته وغلبته ومنعته أنهم سيغلبون. ولكن هيهات هيهات فقد تبدلت الأمور وتغيَّرت الأحوال فموسى عليه السلام ليس بساحرٍ كهؤلاء ولم يأت بسحرٍ، بل هو رسول من عند الله حقًّا، فبعد أن ألقى السحرةُ حبالهم وعصيهم فظهرت للناس في صورة حيات وثعابين ونحو ذلك مما يأتي به السحرة، وكما قال تعالى: ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]، فحينئذٍ أوحى الله عزوجل إلى موسى عليه السلام: ﴿أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ [الأعراف: ١١٧]، فألقى موسى عليه السلام عصاه فإذا وبتوفيق من الله وبقدرة الله تتحول إلى حية عظيمة ضخمة حية على الحقيقة، تبتلع كل ما جاء به هؤلاء السحرة من سحر ليصرفوا الناس به عن الحق، إنها ابتلعت والتهمت كل ما ألقاه السحرة فعندها وحينئذٍ، وقد علم السحرة أن هذا الذي جاء به موسى عليه السلام ليس بسحرٍ، بل هي آيةٌ من عند الله، عندها ألقي السحرة ساجدين خروا لله سجدًا متواضعين خاشعين لله ذليلين مُقرين بقدرة الله، مصدقين موسى عليه السلام معلنين عن إيمانهم قائلين آمنا برب العالمين رب موسى وهارون، قالوا ذلك دون استئذان من فرعون، ودون رجوع إلى أحد، بل كلهم وبمجموعهم وفي وقت واحد عند رؤية المعجزة الكبرى والآية العظيمة آمنوا كلهم أجمعون.

فعندها توعدهم فرعون وتهددهم قائلًا: آمنتم له قبل أن آذن لكم؟!! ويظن عدو الله أنه مسيطرٌ على القلوب وأن الإيمان يحتاج إلى استئذان.

ثم بدأ عدو الله يطعن في صدقهم ويتوعدهم فقال لهم: ﴿إِنَّهُۥ﴾ يعني موسى عليه السلام ﴿لَكَبِيرُكُمُ﴾ أي: لرئيسكم الذي علمكم السحر فلسوف تعلمون ما سيحل بكم من العقوبة والنكال.

واستمر في تهديده ووعيده قائلًا: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الشعراء: ٤٩] أي: لأقطعن اليد اليمنى مع الرجل اليسرى، ثم بعد ذلك اليد اليسرى مع الرجل اليمنى، وليس هذا فحسب بل ولأصلبنكم في جذوع النخل، لأصلبنكم كلكم، ما أنا بتارك منكم أحدًا، قالوا حينئذٍ ﴿لَا ضَيْرَ﴾ [الشعراء: ٥٠] لا ضرر، لن يلحقنا كبير ضرر فالدنيا كلها زائلة وكلها فانية وإننا إلى الله راجعون يوم القيامة فسيجازينا على ما تحملناه في سبيله.

فهذا قولهم: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ راجعون يوم القيامة.

هكذا هانت عليهم الدنيا بعد أن قذف الله عز وجل الإيمان في قلوبهم!!

هكذا زالت عنهم الشبهات وانكشفت عنهم الجهالات وأذهب الله عنهم الكفر والضلالات!!

لقد كانوا عما قليل، وبين يدي المعركة الفاصلة يطلبون الأجر الدنيوي قائلين: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤١].

لقد كانوا يقسمون بعزة فرعون على أن الغلبة ستكون لهم!!

والآن تبدلت أحوالهم، فتركوا الدنيا خلف ظهورهم ولم يبالوا بالتهديد، ولم يجزعوا لقول فرعون ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لن أترك منكم أحدًا آمنًا سالمًا بل ستقتلوا وتصلبوا في جذوع النخل!!

لم يبالوا بكل هذا، فقد عرفوا ربهم وآمنوا به عن استدلال وبصيرة وعلم ويقين!!

فليكن حينئذٍ ما يكون والثبات من الله والتوفيق بالله!!

والهدى من عند الله!!

نسأله سبحانه الثبات والهدى والإيمان واليقين!

ثم إن هؤلاء السحرة بعد أن آمنوا سألوا ربهم عَزَّوَجَلَّ مغفرةً لسالف الذنوب التي صدرت منهم في سائر حياتهم، حتى يختم لهم بخير ولا يؤاخذوا بها، فقالوا:

وبعد أن منَّ الله عليهم بالإيمان وتوعدهم فرعون بالذي توعدهم به لم يُبالوا ولم يتأثروا بل قالوا وبإيمان صادق، قالوا ما حاصله: إنا نرجو أن يغفر لنا ربنا ما قدمناه من الخطايا والذنوب والكبائر والآثام، نطمع في ذلك ونتوسل إلى الله عَزَّوَجَلَّ بكوننا أول من آمن عند رؤية هذه الآية العظمى والمعجزة الكبرى.

فقولهم: ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ متضمنٌ توسلًا إلى الله عَزَّوَجَلَّ بسبقهم إلى الإيمان ومبادرتهم إليه.

أما كونهم أول المؤمنين، فكما قدمت، فأحد وجوهه أنهم أول المؤمنين عند رؤية الآية العظيمة.

وقيل: أول المؤمنين من قومهم، والله أعلم.

فنسأل الله حسن الختام، وتمام الإيمان.

ثم هذه بعض أقوال أهل العلم في بيان ما سبق.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: فجمع الحاشرون الذين بعثهم فرعون بحشر السحرة ﴿لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾﴾ يقول: لوقت واعد فرعون لموسى الاجتماع معه فيه من يوم معلوم، وذلك يوم الزينة ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾ [طه: ٥٩].

وقيل للناس: ﴿هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ لتنظروا إلى ما يفعل الفريقان، ولمن تكون الغلبة، لموسى أو للسحرة؟ فـ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾، ومعنى لعل هنا كي، يقول:

كي نتبع السحرة، ﴿إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ موسى، وإنما قلت ذلك معناها: لأن قوم فرعون كانوا على دين فرعون، فغير معقول أن يقول من كان على دين: أنظر إلى حجة من هو على خلافي لعلي أتبع دينه، وإنما يقال: أنظر إليها كي أزداد بصيرة بديني، فأقيم عليه. وكذلك قال قوم فرعون. فإياها عنوا بقيلهم: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ فرعون لوعد موسى وموعد فرعون ﴿قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ سِحْرِنَا قِبَلَكَ ﴿إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ موسى ﴿قَالَ﴾ فرعون لهم: ﴿نَعَمْ﴾ لكم الأجر على ذلك ﴿وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ منا. فقالوا عند ذلك لموسى: إما أن تلقي، وإما أن نكون نحن الملقين، وترك ذكر قيلهم ذلك لدلالة خبر الله عنهم أنهم قال لهم موسى: ألقوا ما أنتم ملقون، على أن ذلك معناه فـ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ من حبالكم وعصيكم. ﴿فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ﴾ من أيديهم ﴿وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾ يقول: أقسموا بقوة فرعون وشدة سلطانه، ومنعة مملكته ﴿إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ موسى.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ﴾ حين ألقت السحرة حبالهم وعصيهم. ﴿فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ يقول: فإذا عصا موسى تزدرد ما يأتون به من الفرية والسحر الذي لا حقيقة له، وإنما هو مخاييل وخدعة. ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ يقول: فلما تبين السحرة أن الذي جاءهم به موسى حق لا سحر، وأنه مما لا يقدر عليه غير الله الذي فطر السموات والأرض من غير أصل، خروا لوجوههم سجدًا لله، مذعنين له بالطاعة، مقرين لموسى بالذي أتاهم به من عند الله أنه هو الحق، وأن ما كانوا يعملونه من السحر باطل، قائلين: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الذي دعانا موسى إلى عبادته دون فرعون وملئه. ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ (٤٨)

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ يقول جل ثناؤه: قال فرعون للذين كانوا سحرته فآمنوا: آمنتم لموسى بأن ما جاء به حق قبل أن آذن لكم في الإيمان به. ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ يقول: إن موسى لرئيسكم في السحر، وهو الذي علمكموه، ولذلك آمنتم به. ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عند عقابي إياكم وبال ما فعلتم، وخطأ ما صنعتم من الإيمان به.

وقال الطبري أيضًا:

يقول (أي فرعون): ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم﴾ مخالفًا في قطع ذلك منكم بين قطع الأيدي والأرجل، وذلك أن أقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى، ثم اليد اليسرى والرجل اليمنى، ونحو ذلك من قطع اليد من جانب، ثم الرجل من الجانب الآخر، وذلك هو القطع من خلاف ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾﴾ فوكد ذلك بأجمعين إعلامًا منه أنه غير مستبقٍ منهم أحدًا. ﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ﴾ يقول تعالى ذكره: قالت السحرة: لا ضير علينا؛ وهو مصدر من قول القائل: قد ضار فلان فلانًا فهو يضير ضيرًا، ومعناه: لا ضرر.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن ابن زيد، في قوله: ﴿لَا ضَيْرَ﴾ قال: يقول: لا يضرنا الذي تقول، وإن صنعته بنا وصلبتنا. ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ يقول: إنا إلى ربنا راجعون، وهو مجازينا بصبرنا على عقوبتك إيانا، وثباتنا على توحيده، والبراءة من الكفر به.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره مخبرًا عن قيل السحرة: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ﴾ إنا نرجو أن يصفح لنا ربنا عن خطايانا التي سلفت منا قبل إيماننا به، فلا يعاقبنا بها.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن ابن زيد في قوله: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ﴾ قال: السحر والكفر الذي كانوا فيه.

ثم قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ يقول: لأن كنا أول من آمن بموسى وصدقه بما جاء به من توحيد الله وتكذيب فرعون في ادعائه الربوبية في دهرنا هذا وزماننا.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن ابن زيد في قوله: ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ قال: كانوا كذلك يومئذٍ أول من آمن بآياته حين رأوها.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وذلك أن القبط أرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم، فأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون. وهذا شأن الكفر والإيمان، ما تواجها وتقابلا إلا غلبه الإيمان، ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء:١٨] ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، ولهذا لما جاء السحرة، وقد جمعوهم من أقاليم بلاد مصر، وكانوا إذ ذاك أسحر الناس وأصنعهم وأشدهم تخييلًا في ذلك، وكان السحرة جمعًا كثيرًا، وجمًّا غفيرًا.

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

واجتهد الناس في الاجتماع ذلك اليوم، وقال قائلهم: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾، ولم يقولوا: نتبع الحق سواء كان من السحرة أو من موسى، بل الرعية على دين ملكهم.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ أي: إلى مجلس فرعون وقد ضرب له وطاقًا، وجمع حشمه وخدمه وأمراءه ووزراءه ورؤساء دولته وجنود مملكته، فقام السحرة بين يدي فرعون يطلبون منه الإحسان إليهم والتقرب إليه إن غلبوا، أي: هذا الذي جمعتنا من أجله، فقالوا: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ أي: وأخص مما تطلبون أجعلكم من المقربين عندي وجلسائي.

فعادوا إلى مقام المناظرة ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ﴾ [طه: ٦٥، ٦٦]، وقد اختصر هذا هاهنا فقال لهم موسى: ﴿أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾، وهذا كما يقوله الجهلة من العوام إذا فعلوا شيئًا: هذا بثواب فلان. وقد ذكر الله في سورة الأعراف: أنهم ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف:١١٦]، وقال في «سورة طه»: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه:٦٦، ٦٩].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي: تختطفه وتجمعه من كل بقعة وتبتلعه فلم تدع منه شيئًا.

قال تعالى: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١١٨-١٢٢]، وكان هذا أمرًا عظيمًا جدًّا، وبرهانًا قاطعًا للعذر وحجة دامغة، وذلك أن الذين استنصر بهم وطلب منهم أن يغلبوا، قد غُلبوا وخضعوا وآمنوا بموسى في الساعة الراهنة، وسجدوا لله رب العالمين، الذي أرسل موسى وهارون بالحق وبالمعجزة الباهرة، فَغُلِبَ فرعون غَلبًا لم يشاهد العالم مثله، وكان وقحًا جريئًا - عليه لعنة الله-، فعدل إلى المكابرة والعناد ودعوى الباطل، فشرع يتهددهم ويتوعدهم، ويقول: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ﴾ [طه:٧١]، وقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٣].

وقال ابن كثير أيضًا:

تهددهم فلم يقطع ذلك فيهم، وتوعدهم فما زادهم إلا إيمانا وتسليما. وذلك أنه قد كشف عن قلوبهم حجاب الكفر، وظهر لهم الحق بعلمهم ما جهل

قومهم، من أن هذا الذي جاء به موسى لا يصدر عن بشر، إلا أن يكون الله قد أيده به، وجعله له حجة ودلالة على صدق ما جاء به من ربه؛ ولهذا لما قال لهم فرعون: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾؟ أي: كان ينبغي أن تستأذنوني فيما فعلتم، ولا تفتاتوا عليَّ في ذلك، فإن أذنت لكم فعلتم، وإن منعتكم امتنعتم، فإني أنا الحاكم المطاع؛ ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾. وهذه مكابرة يعلم كل أحد بُطلانها، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم، فكيف يكون كبيرهم الذي أفادهم صناعة السحر؟ هذا لا يقوله عاقل.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قولهم:

﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ﴾ أي: ما قارفناه من الذنوب، وما أكرهتنا عليه من السحر، ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بسبب أنا بادرنا قومنا من القبط إلى الإيمان. فقتلهم كلهم.

بيانٌ لهذا المشهد العظيم والمعركة الحاسمة من سورة الأعراف

أولاً: ذكر الآيات المباركات:

قال تعالى: ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ

﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١١٣-١٢٩]

ثانيًا: معاني مفردات الآيات المباركات:

الكلمة	معناها
﴿إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ﴾	إن غلبنا موسى وتفوقنا عليه.
﴿لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾	لمن قراباتي وفي منزلة أقربائي، ومن المقربين إليَّ في مجالسي.
﴿تُلْقِىَ﴾	ترمي بعصاك.
﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾	خيَّلوا للناس الأشياء على غير حقيقتها – خدعوا أعين الناس.
﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾	أخافوهم- روَّعوهم.
﴿بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾	بتخييل وخداع عظيم كبير في أعين الناس.
﴿تَلْقَفُ﴾	تبتلع وتلتهم- تأكل.
﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾	ما يسحرون- ما يأتون به من الكذب والأباطيل والافتراءات والاختلاقات- يُلقون- يكذبون.
﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ﴾	فظهر الحق.
﴿وَبَطَلَ﴾	ذهب وانهزم واضمحل.
﴿هُنَالِكَ﴾	عند ذلك.
﴿وَٱنقَلَبُوا۟﴾	انصرفوا- رجعوا – هُزموا.

الكلمة	معناها
﴿صَٰغِرِينَ﴾	مقهورين أذلاء.
﴿وَأُلْقِيَ﴾	خرَّوا سُجدًا.
﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾	أصدقتموه بأنه رسول من عند الله وأقررتم بما يقول؟
﴿لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ﴾	خدعة خدعتم بها الناس، وتدبير دبرتموه.
﴿مِّنْ خِلَٰفٍ﴾	كأن تُقْطَعَ اليد اليمنى والرجل اليسرى، أو اليد اليسرى والرجل اليمنى.
﴿لَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾	لأقتلنكم بطريقة الصلب، (وذلك كأن يضعهم على النخيل ويربطهم ويتركهم هكذا حتى يموتوا).
﴿مُنقَلِبُونَ﴾	راجعون.
﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾	أنزل علينا صبرًا، احفظنا وأنزل علينا حبسًا يحبسنا عن الكفر بك ويمنعنا من الكفر بك عند تعذيبه لنا.
﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾	اقبضنا على الإسلام.
﴿أَتَذَرُ﴾	أتترك.
﴿وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾	نستبقي نساءهم- نترك نساءهم أحياء (للاستمتاع بهن ولإذلال الرجال بذلك، ولاستخدام الناس).
﴿قَٰهِرُونَ﴾	غالبون- عالون بالقهر.
﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ﴾	اطلبوا العون من الله.
﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾	النهاية الحسنة والمآل المحمود الطيب.
﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ﴾	يجعلكم خلفاء.

وعن المعنى الإجمالي للآيات المباركات: لقد استشار فرعون - في ظاهر الأمر- الملأ من قومه: لما اتفقت كلمته معهم على أن موسى عليه السلام ساحرٌ من السحرة فأشاروا عليه ﴿أَرْجِهْ﴾ أخِّره ﴿وَأَخَاهُ﴾ هارون ﴿وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ [الشعراء: ٣٦] أرسل إلى مدائن ملكك جامعين ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٣٧]

فعمل فرعون بنصيحة الملأ من قومه!!

عمل بنصيحة الأشراف والوجهاء!!

لقد أرسل إلى مدائن ملكه، أرسل إلى مدن مصر عمومًا من يأتيه بأمهر السحرة وأعظمهم كيدًا وسحرًا ومكرًا!!

أرسل جامعين يجمعون أهل الخبرة بالسحر من أنحاء مصر!!

واجتمع السحرة من كل مكان، اجتمعوا مع فرعون وسألوه ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾؟ [الأعراف: ١١٣].

إن انتصرنا على موسى هل ستعطينا أجورنا أم لا؟

لقد شارطوا فرعون وطلبوا لأنفسهم أجرًا إن هم غلبوا موسى عليه السلام بسحرهم فأجابهم فرعون إلى طلبهم، بل ووعدهم بأكثر مما طلبوا بقوله: ﴿وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٤٢] أي: لمن أهل مجلسي وخاصتي وصحبتي.

فلما اتفقوا مع فرعون على الأجر إن هم غلبوا موسى عليه السلام اجتمعوا فيما بينهم ثم قالوا لنبي الله موسى عليه السلام: إما أن تلقي عصاك وتظهر ما معك، وإما أن نُلقي نحن أولًا كما في الآية الأخرى: ﴿إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ [طه: ٦٥].

لقد قالوا ذلك لظنهم أن سيغلبون موسى عليه السلام لكونهم أصحاب خبرة سابقة وواسعة في السحر!!

فماذا كان لما خيروا موسى عليه السلام بقولهم: ﴿إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ

﴿ٱلْمُلْقِينَ﴾! [الأعراف: ١١٥].

لقد أجابهم موسى عليه السلام بقوله: ﴿أَلْقُوا۟﴾ [الأعراف: ١١٦] كما في الآية الأخرى: ﴿بَلْ أَلْقُوا۟﴾ [طه: ٦٦].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: ليرى الناس صنيعهم ويتأملوه فإذا فُرغ من بهرجهم ومحالهم جاءهم الحق الواضح الجلي بعد التطلب له والانتظار منهم لمجيئه فيكون أوقع في النفوس وكذا كان.

قلت: أما قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦].

فمعناه: أن سحرة فرعون لما ألقوا ما في أيديهم من العصي وغيرها خدعوا أعين الناس وجعلوها ترى الأشياء على غير حقيقتها، فحولوا العصي –فيما يراه الناظر– إلى حيَّات وثعابين عظيمة هائلة أرهبت الناس وأخافتهم وجعلتهم يفرون منها. فماذا كان؟ ماذا كان لما ألقى السحرةُ حبالهم وعصيهم فتحولت – فيما يبدو للناظر– إلى حيات وثعابين وعقارب!!

لقد تسرب الخوف إلى موسى عليه السلام!! إذ هو بشرٌ قال تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾.

ولكن الله عز وجل **طمأنه بقوله:** ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟﴾ [طه: ٦٨، ٦٩] تبتلع ما صنعوه، ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ فدائمًا السحرة لا يفلحون لا يفوزون بمطلوبهم ولا ينجون من مرهوبهم.

لقد قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧] تبتلع ما أتوا به من الكذب وما افتروه من السحر والتخييل والتضليل.

فعندها ظهر الحق وتبين، وزهق الباطل وذهب وانهزم!! واضمحل!! قال

تعالى: ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١١٨] فغُلب السحرة، وهُزموا وانقلبوا أمام المشهد العظيم أذلاء مهانين مهزومين، ولكن الله تداركهم برحمته وأكرمهم وأعزهم بالإيمان به، فآمنوا بعد كفرهم ورجعوا عن غيِّهم وضلالهم، قال تعالى: ﴿ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٠-١٢٢].

هكذا أعلنوا عن إيمانهم وأقروا لله عَزَّوَجَلَّ بالربوبية والإلهية، وأقروا لموسى وهارون عليهما السلام بالنبوة والرسالة.

وهنا قد يطرح سؤال، حاصله كيف قيل: ﴿ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾، فهل يوصف بالسحر من سجد؟ ذلك -والله أعلم- باعتبار ما كانوا فيه من السحر كما قال تعالى: ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ [النساء: ٢] ومعلوم أن إعطائهم الأموال يكون بعد بلوغهم لقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ [النساء: ٦].

ولكن أطلق عليهم يتامى باعتبار ما كانوا فيه من اليُتْمِ، والله أعلم.

وأعود فأقول، ماذا كان من فرعون لما فوجئ بهذا؟

لما فوجئ بهزيمة السحرة، وبانتصار موسى وهارون عليهما السلام؟!!

ماذا فعل فرعون، وماذا قال لما سجد السحرة مُقرِّين لله عَزَّوَجَلَّ بالوحدانية والربوبية والإلهية؟!!

لقد قال فرعون للسحرة لما آمنوا بموسى عليه السلام وأقروا بنبوته وأنه رسولٌ من عند الله عَزَّوَجَلَّ، وأن ما جاء به حقٌّ وليس بسحرٍ وخروا حينئذ سجدًا مقرِّنين بالإيمان. قال لهم فرعون حينئذٍ: أصدقتموه واتبعتموه قبل أن تأخذوا مني إذنًا بذلك، إن هذا الذي صدر منكم كان على اتفاقٍ ومواطأةٍ منكم لموسى وكان ما حدث من إلقائكم العصِيَّ وإلقائه كل ذلك كان منكم ومنه خدعة خدعتم بها الناس لتخرجوا الرؤساء والكبراء من أرض مصر وتستولوا أنتم وهو عليها

وتصبح لكم الرئاسة والوجاهة، ويصبح الملك بأيديكم ويد موسى فسوف تعلمون ما أُحِّله بكم من العقاب وما أُذيقكم من النكال والعذاب.

وقال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: قال فرعون للسحرة إذ آمنوا بالله، يعني: صدّقوا رسوله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، لما عاينوا من عظيم قدرة الله وسلطانه: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾، يقول: أصدقتم بموسى وأقررتم بنبوّته ﴿لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ﴾ يقول لخدعة خدعتم بها من في مدينتنا، لتخرجوهم منها ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ بالإيمان به، ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾، يقول: تصديقكم إياه، وإقراركم بنبوَّته، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، ما أفعل بكم، وما تلقون من عقابي إياكم على صنيعكم هذا.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا تَوَعَّدَ بِهِ فِرْعَوْنُ، لَعَنَهُ اللهُ، السَّحَرَةَ لَمَّا آمَنُوا بِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَا أَظْهَرُهُ لِلنَّاسِ مِنْ كَيْدِهِ وَمَكْرِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ أَيْ: إِنَّ غَلَبَه لَكُمْ فِي يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّمَا كَانَ عَنْ تَشَاوُرٍ مِنْكُمْ وَرِضًا مِنْكُمْ لِذَلِكَ، كَقَوْلِهِ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ وَهُوَ يَعْلَمُ وَكُلُّ مَنْ لَهُ لُبٌّ أَنَّ هَذَا الَّذِي قَالَهُ مِنْ أَبْطَلِ الْبَاطِلِ؛ فَإِنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمُجَرَّدِ مَا جَاءَ مِنْ «مَدْيَن» دَعَا فِرْعَوْنَ إِلَى اللهِ، وَأَظْهَرَ الْمُعْجِزَاتِ الْبَاهِرَةَ وَالْحُجَجَ الْقَاطِعَةَ عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَ بِهِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي مَدَائِنِ مُلْكِهِ وَمُعَامَلَةِ سَلْطَنَتِهِ، فَجَمَعَ سَحَرَةً مُتَفَرِّقِينَ مِنْ سَائِرِ الْأَقَالِيمِ بِبِلَادِ مِصْرَ، مِمَّنِ اخْتَارَ هُوَ وَالْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ، وَأَحْضَرَهُمْ عِنْدَهُ وَوَعَدَهُمْ بِالْعَطَاءِ الْجَزِيلِ. وَقَدْ كَانُوا مِنْ أَحْرَصِ النَّاسِ عَلَى ذَلِكَ، وَعَلَى الظُّهُورِ فِي مَقَامِهِمْ ذَلِكَ وَالتَّقَدُّمِ عِنْدَ فِرْعَوْنَ، وَمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا يَعْرِفُ أَحَدًا مِنْهُمْ وَلَا رَآهُ وَلَا اجْتَمَعَ بِهِ، وَفِرْعَوْنُ يَعْلَمُ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا قَالَ هَذَا تَسَتُّرًا وَتَدْلِيسًا عَلَى رَعَاعِ دَوْلَتِهِ وَجَهَلَتِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ فَإِنَّ قَوْمًا صَدَّقُوهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ مِنْ

أجْهَل خَلْقِ اللهِ وَأَضَلِّهِمْ.

وقال أيضًا:

وقوله: ﴿لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ أي: تجتمعوا أنتم وهو، وتكون لكم دولة وصولة، وتُخرجوا منها الأكابر والرؤساء، وتكون الدولة والتصرف لكم ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي: ما أصنع بكم.

لقد توعدهم بقوله: ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ﴾.

المراد: قطع اليد اليمنى مع الرجل اليسرى، أو اليد اليسرى مع الرجل اليمنى.

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ:

يقول تعالى ذكره، مخبرًا عن قيل فرعون للسحرة إذ آمنوا بالله وصدقوا رسوله موسى: ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ﴾، وذلك أن يقطع من أحدهم يده اليمنى ورجله اليسرى، أو يقطع يده اليسرى ورجله اليمنى، فيخالف بين العضوين في القَطْع، فمخالفته في ذلك بينهما هو «القطع من خلاف».

ويقال: إن أوّل من سن هذا القطع فرعون.

ثم ما الذي أجاب به السحرة فرعون لما هددهم وتوعدهم؟

لقد أجابوه بقولهم: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾.

المعنى، إنا إلى ربنا راجعون، وصائرون إليه.

قد أيقنا بالبعث بعد الموت، وما الذي تنكره علينا يا فرعون ما تُنكر علينا شيئًا إلا أننا صدقنا بأن الآيات التي جاء بها نبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ آيات من عند الله ودلالات ظاهرات على نبوة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم سأل السحرة ربهم عَزَّ وَجَلَّ أن ينزِّل عليهم صبراً وثباتًا على الإسلام يمنعهم به من الكفر عند تعذيب فرعون لهم، وسألوا ربهم عَزَّ وَجَلَّ أن يتوفاهم على الإسلام والإيمان.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَوْلُ السَّحَرَةِ: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ أَيْ: قَدْ تَحَقَّقْنَا أَنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ وَعَذَابَهُ أَشَدُّ مِنْ عَذَابِكَ وَنَكَالِهِ عَلَى مَا تَدْعُونَا إِلَيهِ اليومَ وَمَا أَكْرَهَتْنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ أَعْظَمُ مِنْ نَكَالِكَ فَلَنَصْبِرَنَّ اليومَ عَلَى عَذَابِكَ لِنَخْلُصَ مِنْ عَذَابِ اللهِ وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أَيْ: عُمَّنَا بِالصَّبْرِ عَلَى دِينِكَ وَالثَّبَاتِ عَلَيْهِ ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ أَيْ: مُتَابِعِينَ لِنَبِيِّكَ مُوسَى عليه السلام وَقَالُوا لِفِرْعَوْنَ: ﴿فَاقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ فَكَانُوا فِي أَوَّلِ النَّهَارِ سَحَرَةً، فَصَارُوا فِي آخِرِهِ شُهَدَاءَ بَرَرَةً.

وقال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: قال السحرة مجيبة لفرعون، إذ توعَّدهم بقطع الأيدي والأرجل من خلاف، والصلب: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ يعني بالانقلاب إلى الله: الرجوع إليه والمصير وقوله: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾، يقول: ما تنكر منا، يا فرعون، وما تجد علينا، إلا من أجل أن آمنا، أي: صدقنا ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾، يقول: بحجج ربّنا وأعلامه وأدلته التي لا يقدر على مثلها أنت ولا أحد، سوى الله، الذي له ملك السموات والأرض. ثم فزعوا إلى الله بمسألته الصبرَ على عذاب فرعون، وقبض أرواحهم على الإسلام فقالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾، يعنون بقولهم: ﴿أَفْرِغْ﴾، أنزل علينا حَبْسًا يحبسنا عن الكفر بك، عند تعذيب فرعون إيانا ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾، يقول: واقبضنا إليك على الإسلام دين خليلك إبراهيم صلى الله عليه وسلم، لا على الشرك بك.

قلتُ (مصطفى): وهنا يطرح سؤال: هل صحيح أن موسى عليه السلام التقى مع أمير السحرة قبل المبارزة بإلقاء العصيِّ، ووعده أمير السحرة أن يؤمن إذا انتصر عليه موسى؟

وأقول مجيبًا: لا يصح بذلك سند فيما علمتُ وكذا لا يصح ما أورده الطبري بإسناده عن السّدي في حديث ذكره، عن أبي مالك وعلى بن أبي طلحة، عن ابن عباس وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ: التقى موسى وأميرُ السحرة، فقال له موسى: أرأيتك إن غلبتك أتؤمن بي، وتشهد أنَّ ما جئت به حق؟ قال الساحر: لآتين غدًا بسحر لا يغلبه سحر، فوالله لئن غلبتني لأومنن بك، ولأشهدن أنك حق! وفرعون ينظر إليهم، فهو قول فرعون: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾، إذ التقيتما لتتظاهرا فتخرجا منها أهلها.

أعود فأقول مستعينًا بالله عَزَّوَجَلَّ: لقد سأل السحرة ربهم عَزَّوَجَلَّ الوفاة على الإسلام حتى لا يفتنوا عن دينهم، ولم يرهبوا تهديدات فرعون ولا وعيده!

فماذا كان من أشراف القوم ووجهائهم!!

ماذا كان من الملأ من قوم فرعون؟؟

لقد حرضوا فرعون على قتل موسى وقتل قومه وتشريدهم.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ﴾.

المعنى، والله تعالى أعلم، وقال الأشراف ووجهاء الناس من قوم فرعون لفرعون: أتترك موسى يا فرعون يفعل في الناس ما يشاء ويحولهم عن دينهم إلى دينه ويفسدوا في الأرض ويتركوا عبادتك آلهتك.

معنى آخر: أنترك موسى وقومه ليفسدوا في الأرض، وقد ترك عبادتك وعبادة آلهتك.

والمعنى الثالث: أتترك موسى يا فرعون يفسد في الأرض وتظن أنه سيتركك ويترك آلهتك التي تعبد، أي: أنك إذا تركته فلن يتركك هو، ولن يترك آلهتك.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي قوله: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ﴾، وجهان من التأويل:

أحدها: أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض، وقد تركك وترك عبادتك وعبادة آلهتك، وإذا وجه الكلام إلى هذا الوجه من التأويل، كان النصبُ في قوله: ﴿وَيَذَرَكَ﴾، على الصرف، لا على العطف به على قوله: ﴿لِيُفْسِدُواْ﴾.

والثاني: أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض، وليذرك وآلهتك، كالتوبيخ منهم لفرعون على ترك موسى ليفعل هذين الفعلين. وإذا وجِّه الكلام إلى هذا الوجه، كان نصب: ﴿وَيَذَرَكَ﴾ على العطف على ﴿لِيُفْسِدُواْ﴾.

قال الطبري:

والوجه الأول أولى الوجهين بالصواب.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يُخْبِرُ تَعَالَى عَمَّا تَمَالَأَ عَلَيْهِ فِرْعَوْنُ وَمَلَؤُهُ، وَمَا أَظْهَرُوهُ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ مِنَ الْأَذَى وَالْبَغْضَةِ: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ أَيْ: لِفِرْعَوْنَ ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ﴾ أَيْ: أَتَدَعُهُمْ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ، أَيْ: يُفْسِدُوا أَهْلَ رَعِيَّتِكَ وَيَدْعُوهُمْ إِلَى عِبَادَةِ رَبِّهِمْ دُونَكَ، يَالَلَّهِ لِلْعَجَبِ! صَارَ هَؤُلَاءِ يُشْفِقُونَ مِنْ إِفْسَادِ مُوسَى وَقَوْمِهِ! أَلَا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ هُمُ الْمُفْسِدُونَ، وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ؛ وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ: «الْوَاوُ» هُنَا حَالِيَّةٌ، أَيْ: أَتَذَرُهُ وَقَوْمَهُ يُفْسِدُونَ وَقَدْ تَرَكَ عبادتك؟ وَقَرَأَ ذَلِكَ أُبَيّ بْنُ كَعْبٍ: «وَقَدْ تَرَكُوكَ أَنْ يَعْبُدُوكَ وَآلِهَتَكَ»، حَكَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ.

وَقَالَ آخَرُونَ: هِيَ عَاطِفَةٌ، أَيْ: لَا تَدَعْ مُوسَى يَصْنَعُ هُوَ وَقَوْمُهُ مِنَ الْفَسَادِ مَا قَدْ أَقْرَرْتَهُمْ عَلَيْهِ وَعَلَى تَرْكِهِ آلِهَتَكَ.

وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: «إِلَاهَتَكَ» أَيْ: عِبَادَتَكَ، وَرُوِي ذَلِكَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ.

وَعَلَى الْقِرَاءَةِ الْأُولَى قَالَ بَعْضُهُمْ: كَانَ لِفِرْعَوْنَ إِلَهٌ يَعْبُدُهُ. قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: كَانَ لِفِرْعَوْنَ إِلَهٌ يَعْبُدُهُ فِي السِّرِّ. وَقَالَ فِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: كَانَ لَهُ جُمَانَة فِي عُنُقِهِ مُعَلَّقَةٌ يَسْجُدُ لَهَا.

قلت: فعلى ما ذُكر فيطرح هاهنا سؤال؟

كيف الجمع بين الآيتين: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ وبين قول فرعون: ﴿أَنَاْ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، وكذا قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾.

مفادُ الآية الأولى عند قومٍ أن قوله: ﴿وَءَالِهَتَكَ﴾ يُفيد أن فرعون كان يعبد إلهًا، فكيف يلتئم هذا مع قولٍ فرعون: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾.

أجاب على ذلك بعض العلماء بقولهم: إن آلهتك معناها عبادتك، وعليه فلا إشكال.

وقال آخرون: إن فرعون كان له إلهٌ يعبده في السر، والله تعالى أعلم.

أعود فأقول: ماذا كان من فرعون لما حرَّضه قومه على قتل موسى ومن معه؟

لقد ازداد تعاليًا وكبرًا وعدوانًا وبغيًا، وهو يجد التأييد من معاونيه ووزرائه وشعبه فقال: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف:١٢٧]

سنستمر في قتل الأبناء، ونزيد من ذلك ونترك النسوة أحياء نمتهنهن ولن تقوم لهم جميعًا قائمة، فإنا غالبون لهم، وهم لنا أذلاء مقهورون.

وماذا صنع نبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أمام هذه التهديدات؟!

لقد علم أن الله عَزَّوَجَلَّ ناصره ومُعينه ومؤيده فاستعان بالله وأوصى قومه بهذه الوصية: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

اطلبوا العون من الله عَزَّوَجَلَّ كي يعينكم على الصبر والثبات وكي ينجيكم من فرعون وقومه، فكما هو معلوم أن الصابر من صبَّره الله عَزَّوَجَلَّ، ولن يستطيع أحد أن يصبر إلا إذا صبره الله، ولقد قال تعالى لنبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧].

فلذا طلب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من قومه الاستعانة بالله كي يعينهم على الصبر.

وقوله: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ﴾ معناه اثبتوا على إيمانكم ولا تجزعوا بسبب ما ينالكم من المكروه والسوء في أنفسكم وأبنائكم وأموالكم من فرعون وقومه.

والمراد بالصبر الحبس كما هو معلوم، فالمعنى: احبسوا أنفسكم على الإيمان بالله والرضا بقضائه ولا تجزعوا ولا تتركوا إيمانكم.

﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ﴾ [الأعراف: ١٢٨] الأرض التي نحيا عليها ونعيش عليها مالكها هو الله سبحانه، هو الذي يتصرف فيها كيف يشاء ويورثها من يشاء من عباده وليس فرعون هو الذي يتصرف فيها.

هذا، وقد وُعد الإسرائيليون- إن هم صبروا وآمنوا- بذلك كما قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

وأما الأرض التي وُعد بها الإسرائيليون فهي أرض مصر.

هذا، وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن الأرض ها هنا أرض الجنة، ولا شك ولا ريب أن الله عَزَّوَجَلَّ يورث أرض الجنة أيضًا من يشاء من عباده، فأهل الإيمان يقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾.

ثم إن موسى عليه السلام ذكر قومه بأن العاقبة للمتقين المراد بالعاقبة النهاية وعاقبةُ كل شيء آخره والمراد بقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ النهاية الحسنةُ والختام الطيب المحمود للذين اتقوا ربهم فاجتنبوا معصيته وعملوا بأوامره ولزموا طاعته وأدوا فرائضه.

والنهاية الحسنة في هذا المقام- التي هي العاقبة- قيل: كونهم ورثوا أرض مصر، وسلمهم الله وأغرق عدوهم، وقيل: إنها الجنة، والله أعلم.

موسى عليه السلام يُوصي الإسرائيليين بالصبر

فشكى الإسرائيليون إلى موسى عليه السلام حالهم، وما هم فيه من النكد والذل والإهانة قبل بعثته وبعد بعثته وقبل مجيئه من مدين وبعد مجيئه فقالوا: لموسى عليه السلام ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

ومعنى ذلك، والله تعالى أعلم، أنهم شكَوْا إلى موسى عليه السلام حالهم وما حلَّ بهم من البلاء من قبل أن يُرسل إليهم موسى عليه السلام ومن بعد ما أرسل إليهم.

أوذوا من قبل أن يبعث موسى بالرسالة، وذلك أن فرعون كان يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم ويسخرهم للأعمال الشاقة المُرهقة ويسومهم سوء العذاب، وأوذوا من بعد ما جاءهم موسى عليه السلام بهذا التهديد الذي سمعوه من فرعون إذ قال: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ فتوقعوا أن يُجدد عليهم العذاب وأن يُنزل بهم النَّكال.

هكذا شكى الإسرائيليون حالهم!!

فحثهم موسى عليه السلام على الصبر والثبات وبشرهم بأن الله عز وجل سيهلك عدوهم وينصرهم على عدوهم ويورثهم الأرض ويختبرهم ويبتليهم بالتمكين في الأرض بعد أن كانوا مستضعفين فيها، فقال لهم: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

والمعنى والله أعلم: لعلَّ الله عز وجل – الذي هو ربكم ورب الخلق كلهم- أن يهلك عدوكم فرعون وقومه، وكل من يعاديكم- ويجعلكم خلفاء في الأرض فينظر عملكم الذي ستعملون هل تقومون فيها بأمر الله أم أنكم ستعصونه وتبارزونه بالمعاصي؟!!

قال الطبري رحمه الله:

وقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾، يقول جل ثناؤه: قال موسى لقومه: لعل ربكم أن يهلك عدوكم: فرعون وقومه ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ﴾، يقول: يجعلكم تخلفونهم في أرضهم بعد هلاكهم، لا تخافونهم ولا أحدًا من الناس غيرهم ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾، يقول: فيرى ربكم ما تعملون بعدهم، من مسارعتكم في طاعته، وتثاقلكم عنها.

وسياق آخر للقصة بإجمال من سورة القصص

أولاً: ذكر الآيات المباركات:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٣٦-٤٣]

ثانيًا: معاني مفردات الآيات:

الكلمة	معناها
﴿مُّفْتَرًى﴾	مكذوب مُختلق.
﴿عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾	العقبى المحمودة في الدار الآخرة
﴿لَا يُفْلِحُ﴾	لا يسعد - لا يظفر بمطلوبه ولا ينجو من مرهوبه.
﴿صَرْحًا﴾	الصرح: كل بناء مسطح عالٍ
﴿أَطَّلِعُ﴾	أنظر
﴿إِلَـٰهِ﴾	معبود

الكلمة	معناها
﴿لَا يُرْجَعُونَ﴾	لا يبعثون بعد مماتهم
﴿فَنَبَذْنَاهُمْ﴾	قذفناهم - طرحناهم - ألقيناهم - أغرقناهم
﴿الْيَمِّ﴾	البحر
﴿عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾	آخر أمرهم
﴿الْمَقْبُوحِينَ﴾	الممقوتين-المشوَّهين(مشوَّهين الخلق) بسواد الوجوه وزرقة العيون - المُهْلَكين - المطرودين - المبعدين ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾.

ثالثًا: وعن المعنى الإجمالي:

فأقول وبالله التوفيق: إن موسى عليه السلام لما جاء إلى فرعون بالدلالات الواضحات والمعجزات الباهرات الدالة على صدقه، وعلى نبوته ورسالته قابلوا هذه المعجزات بالتكذيب والاتهام، فاتهموه بأنه ساحر مفترى، ووصفوا ما جاء به من المعجزات بأنها سحرٌ وكهانة افتراها موسى عليه السلام واختلقها، وتعللوا بأنها لم تكن موجودة في آبائهم الأولين، ولم يرد عليهم أن شيئًا من هذا قد حدث فحينئذٍ أجاب موسى عليه السلام بقوله: ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ﴾ ربي أعلم بي ويعلم أنني جئت من عند الله بهذه الآيات الباهرات والمعجزات الواضحات، وهو سبحانه سيحاسبني ويحاسبكم، وهو سبحانه أعلم بأهل الصدق والحق الذين تكون لهم العاقبة الحسنة في الآخرة وهي الجنة، ومن تكون له العاقبة السيئة وهي النار إنه لا يفوز بمطلوبه ولا ينجو من مرهوبه كل ظالم فالظالم لن يفوز بالجنة ولن ينج من عذاب الله!!

فماذا كان جواب فرعون أمام هذا البيان من كليم الله موسى عليه السلام؟!!

لقد تمادى في ادعاء الألوهية والربوبية وتصنع الورع التام أمام قومه، وأصرَّ على أن يعبده موسى عليه السلام، وإلا فإنه سيلقيه في السجون مع المساجين المجرمين!!

تمادى فرعون في دعوى الإلهية والربوبية بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾.

وقوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

وقوله لموسى عليه السلام: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾[الشعراء:٢٩]

وتصنع الورع والتعقل بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ ليلبس على الناس، وإيضاح ذلك كما قال العلامة السعدي رحمه الله حيث قال: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ متجرئًا على ربه، وموهمًا على قومه السفهاء ضعفاء العقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ أي: أنا وحدي إلهكم ومعبودكم، ولو كان ثَمَّ إله غيري لعلمته.

فانظر إلى هذا التورع التام من فرعون حيث لم يقل: (ما لكم من إله غيري) وهذا لأنه عندهم العالم الفاضل الذي مهما قال فهو الحق، ومهما أمر أطاعوه. فلما قال هذه المقالة التي قد تحتمل أن ثَمَّ إلهًا غيره، أراد أن يحقق النفي الذي جعل فيه ذلك الاحتمال، فقال لـ «هامان»: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ [القصص:٨٣] ليجعل له لبنًا من فخار.

﴿فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا﴾ أي: بناءً عاليًا.

﴿لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [القصص:٨٣] ولكن سنحقق هذا الظن، ونريكم كذب موسى.

فانظر هذه الجرءة العظيمة على الله التي ما بلغها آدمي؛ كذَّب موسى، وادَّعى أنه الله، ونفى أن يكون له علم بالإله الحق، وفعل الأسباب ليتوصل إلى إله موسى، وكل هذا ترويج.

ولكن العجب من هؤلاء الملأ الذين يزعمون أنهم كبار المملكة، المدبرون لشئونها؛ كيف لعب هذا الرجل بعقولهم واستخف أحلامهم، وهذا لفسقهم الذي صار صفة راسخة فيهم. فسد دينُهم، ثم تَبِعَ ذلك فسادُ عقولهم، فنسألك اللهم

الثبات على الإيمان، وأن لا تزيغ قلوبنا بعد إذْ هديتنا، وأن تهب لنا من لدنك رحمة؛ إنك أنت الوهاب.

وهنا لفتة في أبواب المعتقد: حيث قال فرعون: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧].

فمفاده أن فرعون فهم من موسى عليه السلام أنه يقول: أن الله عز وجل في السماء.

ولفتة أخرى في باب آخر: إلى أن الطوب الأحمر معروف في مصر منذ زمن بعيد، ومن أدلة ذلك.

قول فرعون لهامان: ﴿فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا﴾.

[القصص:٣٨]

❁ وأخرج الطبري بسند حسن عن قتادة: ﴿فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ قال: فكان أول من طبخ الآجرّ يبني به الصرح.

❁ وأخرج بسندٍ صحيح عن ابن زيد: ﴿فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ قال: المطبوخ الذي يوقد عليه هو من طين يبنون به البنيان.

وأعود قائلًا: لقد تمادى فرعون في الغي والتكذيب والكبر والتعالي، وليس هو فقط، بل تبعه على ذلك جنوده ووزراؤه، منكرين البعث والحساب، مكذبين باليوم الآخر.

قال تعالى: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ﴾.

استكبروا عن تصديق موسى واتباعه على ما دعاه إليه من الإيمان والتوحيد؛ تعديًا وتعاليًا وعلوًّا على أمر الله وعلى نبي الله.

فماذا كان حينئذ!! ماذا كان من أمر فرعون وجنوده لما كذبوا رسول الله موسى عليه السلام واستكبروا وتجبروا؟

لقد قال تعالى: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ﴾ فطرحناهم جميعًا

في البحر فأبادهم الله وأفناهم وأذلهم وأهانهم!!

قال تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يقول تعالى ذِكْرُهُ: فانظر يا محمد بعين قلبك: كيف كان أمر هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم، فكفروا بربهم وردُّوا على رسوله نصيحته، ألم نهلكهم فنُوَرِّث ديارهم وأموالهم أولياءنا، ونخوّلهم ما كان لهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم، بعد أن كانوا مستضعفين، تُقتل أبناؤهم، وتُستحيا نساؤهم، فإنَّا كذلك بك وبمن آمن بك وصدقك فاعلون، ومخوّلوك وإيَّاهم ديار مَنْ كذَّبَك، وردَّ عليك ما أتيتَهم به من الحق وأموالهم، ومهلكوهم قتلاً بالسيف، سنة الله في الذين خَلَوا من قبل.

قلت: ولم يقف الأمر إلى هذا في شأن فرعون وجنده لم ينته أمرهم بإلقائهم في البحر وقد علاهم الذل والصغار، ولكن ستتبعهم بعد ذلك اللعنات سيتبعهم العار والنار والشنَّار.

ثم إنهم محكومٌ عليهم دائمًا وأبدًا بالهزيمة ومتبوعون بعد موتهم باللعنات.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ﴾.

المعنى ـ والله أعلم ـ: جعلنا فرعون ومن معه أئمةً وقادةً في الشرِّ لمن سلك طريقتهم واتبع هديهم، وأخذ برأيهم في الكفر وتكذيب الرسل، فمن ثَمَّ يحملون أوزارهم وأوزار من تبعهم إلى يوم القيامة كما قد ورد في «صحيح مسلم»[1] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسولَ الله ﷺ قال: «**مَنْ دَعَا إلى هُدًى، كان لَهُ منَ الأجْرِ مِثْلُ أجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لا يَنْقُصُ ذلك من أجُورِهم شيئًا، ومَنْ دعَا إلى ضَلالَةٍ كانَ عليْهِ منِ الإثمِ مثل آثَامِ مَنْ تبِعَهُ، لا يَنْقُصُ ذلكَ من آثامِهِم شيْئًا**».

لقد قال تعالى: ﴿وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ...﴾.

المعنى ـ والله أعلم ـ لعناهم بعد مماتهم أيضًا، وجعلنا الدعاء باللعن عليهم لازمًا لهم، فمن جاء من بعدهم لعنهم، والملائكة تلعنهم.

---

(١) مسلم (٢٦٧٤).

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ يقول تعالى ذِكْرُهُ: وألزمنا فرعون وقومه في هذه الدنيا خِزيًا وغضبًا منا عليه، فختمنا لهم فيها بالهلاك والبوار والثناء السيّئ، ونحن متبعوهم لعنة أخرى يوم القيامة، فمخزوهم بها الخزي الدائم، ومهينوهم الهوانَ اللازم.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وشرع الله لعنتهم ولعنة ملكهم فرعون على ألسنة المؤمنين من عباده المتبعين رسله.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

أي: وأتبعناهم زيادة في عقوبتهم وخزيهم في الدنيا لعنة؛ يلعنون، ولهم عند الخلق الثناء القبيح والمقت والذم، وهذا أمر مشاهد، فهم أئمة الملعونين في الدنيا ومقدمتُهم.

ما ورد عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في حديث الفتون[1] مما يتعلق بالمعركة الحاسمة بين موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وسحرة فرعون:

قَالَ سَعِيدٌ: حَدَّثَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ أَنَّ يَوْمَ الزِّينَةِ الْيَوْمُ الَّذِي أَظْهَرَ اللهُ فِيهِ مُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ وَالسَّحَرَةِ، وَهُوَ يَوْمُ عَاشُورَاءَ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا فِي صَعِيدٍ، قَالَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: انْطَلِقُوا فَلْنَحْضُرْ هَذَا الْأَمْرَ ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤٠] يَعْنُونَ مُوسَى وَهَارُونَ - اسْتِهْزَاءً بِهِمَا، فَقَالُوا: يَا مُوسَى - لِقُدْرَتِهِمْ بِسِحْرِهِمْ - ﴿إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف: ١١٥] قَالَ: بَلْ أَلْقُوا ﴿ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٤٤] فَرَأَى مُوسَى مِنْ سِحْرِهِمْ مَا أَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً، فَأَوْحَى اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَيْهِ ﴿أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ [الأعراف: ١١٧] فَلَمَّا أَلْقَاهَا صَارَتْ ثُعْبَانًا

---

(١) وقد تقدم وتقدمت الإشارة إلى أنه موقوف على ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. والله أعلم.

عَظِيمًا فَاغِرَةً فَاهَا، فَجَعَلَتِ الْعِصِيُّ بِدَعْوَةِ مُوسَى تَلَبَّسُ بِالْحِبَالِ حَتَّى صَارَتْ جُرَزًا إِلَى الثُّعْبَانِ تَدْخُلُ فِيهِ، حَتَّى مَا أَبْقَتْ عَصًا وَلَا حَبْلًا إِلَّا ابْتَلَعَتْهُ، فَلَمَّا عَرَفَ السَّحَرَةُ ذَلِكَ قَالُوا: لَوْ كَانَ هَذَا سِحْرًا لَمْ يَبْلُغْ مِنْ سِحْرِنَا هَذَا، وَلَكِنَّهُ أَمْرٌ مِن أَمْرِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى آمَنَّا بِاللهِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ مُوسَى وَنَتُوبُ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ مِمَّا كُنَّا عَلَيْهِ، وَكَسَرَ اللهُ ظَهْرَ فِرْعَوْنَ فِي ذَلِكَ الْمَوْطِنِ وَأَشْيَاعَهُ، وَأَظْهَرَ الْحَقَّ ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١٨، ١١٩] وَامْرَأَةُ فِرْعَوْنَ بَارِزَةٌ مُتَبَذِّلَةٌ تَدْعُو اللهَ بِالنَّصْرِ لِمُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ، فَمَنْ رَآهَا مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ظَنَّ أَنَّهَا ابْتَذَلَتْ لِلشَّفَقَةِ عَلَى فِرْعَوْنَ وَأَشْيَاعِهِ، وَإِنَّمَا كَانَ حُزْنُهَا وَهَمُّهَا لِمُوسَى فَلَمَّا طَالَ مُكْثُ مُوسَى لِمَوَاعِيدِ فِرْعَوْنَ الْكَاذِبَةِ، كُلَّمَا جَاءَهُ بِآيَةٍ وَعَدَهُ عِنْدَهَا أَنْ يُرْسِلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَإِذَا مَضَتْ أَخْلَفَ مَوَاعِيدَهُ، وَقَالَ: هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يَصْنَعَ غَيْرَ هَذَا، فَأَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى قَوْمِهِ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ، كُلُّ ذَلِكَ يَشْكُو إِلَى مُوسَى وَيَطْلُبُ إِلَيْهِ أَنْ يَكُفَّهَا عَنْهُ، وَيُوَافِقُهُ أَنْ يُرْسِلَ مَعَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَإِذَا كَفَّ ذَلِكَ عَنْهُ أَخْلَفَ مَوْعِدَهُ وَنَكَثَ عَهْدَهُ، حَتَّى أُمِرَ بِالْخُرُوجِ بِقَوْمِهِ، فَخَرَجَ بِهِمْ لَيْلًا، فَلَمَّا أَصْبَحَ فِرْعَوْنُ وَرَأَى أَنَّهُمْ قَدْ مَضَوْا، أَرْسَلَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ، يَتْبَعُهُمْ بِجُنُودٍ عَظِيمَةٍ كَثِيرَةٍ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَى الْبَحْرِ أَنْ إِذَا ضَرَبَكَ عَبْدِي مُوسَى بِعَصَاهُ فَانْفَرِقِ اثْنَيْ عَشَرَ فِرْقًا حَتَّى يَجُوزَ مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ، ثُمَّ الْتَقِ عَلَى مَنْ بَقِيَ بَعْدَهُ مِنْ فِرْعَوْنَ وَأَشْيَاعِهِ، فَنَسِيَ مُوسَى أَنْ يَضْرِبَ الْبَحْرَ بِالْعَصَا فَانْتَهَى إِلَى الْبَحْرِ وَلَهُ قَصِيفٌ مَخَافَةَ أَنْ يَضْرِبَهُ مُوسَى بِعَصَاهُ وَهُوَ غَافِلٌ فَيَصِيرَ عَاصِيًا فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ وَتَقَارَبَا، قَالَ قَوْمُ مُوسَى ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١] افْعَلْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ، فَإِنَّكَ لَنْ تَكْذِبَ وَلَنْ تُكْذَبَ، فَقَالَ: وَعَدَنِي إِذَا أَتَيْتُ الْبَحْرَ أَنْ يُفْرَقَ لِي اثْنَيْ عَشَرَ فِرْقًا حَتَّى أُجَاوِزَهُ، ثُمَّ ذَكَرَ بَعْدَ ذَلِكَ الْعَصَا، فَضَرَبَ الْبَحْرَ بِعَصَاهُ فَانْفَرَقَ لَهُ حِينَ دَنَا أَوَائِلُ جُنْدِ فِرْعَوْنَ مِنْ أَوَاخِرِ جُنْدِ مُوسَى، فَانْفَرَقَ الْبَحْرُ كَمَا أَمَرَهُ رَبُّهُ، وَكَمَا وَعَدَ مُوسَى، فَلَمَّا أَنْ جَاوَزَ مُوسَى وَأَصْحَابُهُ كُلُّهُمْ، وَدَخَلَ فِرْعَوْنُ وَأَصْحَابُهُ الْتَقَى عَلَيْهِمْ كَمَا أَمَرَ اللهُ.

الفصل السادس

في بيان الآيات المتتابعة الدالة على صدق نبي الله موسى عليه السلام وتتابع المواعظ وصور التذكير لآل فرعون وبيان عدم انتفاع فرعون بكل آيات التذكير والوعظ وتماديه في الغي

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴾ [طه: ٥٦].

وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ﴾ [النمل: ١٤].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٢].

وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٧].

(٣٢٨) أحمر أسود

أقول، وبالله التوفيق:

ولما نصر الله عَزَّوَجَلَّ نبييه موسى وهارون عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ على فرعون وعلى السحرة، وخر السحرة سجدًا مُعلنين عن إيمانهم برب العالمين رب موسى وهارون طالبين من الله عَزَّوَجَلَّ المغفرة لما صدر منهم من الخطايا وسالف الذنوب.

لما كان ذلك وأصرَّ فرعون على كُفرِهِ وتمادى فيه وواصَل الاتهامات بالباطل لموسى وهارون والسحرة واتهمهم جميعًا بالتواطؤ والمكر والاحتيال لإخراج أهل المدينة من مدينتهم!!

لما كان ذلك وهدد فرعون السحرة بما هددهم به، وهدّد وتوعد موسى عَلَيْهِالسَّلَامُ وبني إسرائيل بالذي توعدهم به أُمهل زمنًا –تُرك وقتًا– لم يعاجله الله بالعذاب ولا بالعقاب، بل توالت الآيات الدالة على صدق موسى عَلَيْهِالسَّلَامُ، وتوالت الابتلاءات على فرعون وقومه لعلهم يرجعون عن غيِّهم ويتركون ويقلعون عن الكفر والعناد، فسُلِّطت عليهم الابتلاءات والفتن والمحن لعلهم يتعظون ويعتبرون. وهذا بيان لشيءٍ من هذه الابتلاءات والشدائد التي ذكَّر الله سبحانه وتعالى بها آل فرعون، وورد ذكرها في سورة الأعراف وغيرها من السور، أسوقها مع بيان لبعض معانيها وما فيها من المواعظ والدلائل على نبوة موسى عَلَيْهِالسَّلَامُ.

أولاً: ذكر الآيات المباركات:

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ
يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ
وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ
مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ
وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ
ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ
وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ

إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف: ١٣٠-١٣٧].

ثانيًا: معاني مفردات الآيات المباركات

الكلمة	معناها
﴿أَخَذْنَآ﴾	ابتلينا- عَذَّبْنَا.
﴿بِٱلسِّنِينَ﴾	المراد: سنوات الشدة والجدب وعدم إخراج الأرض ثمرتها إلا القليل.
﴿يَذَّكَّرُونَ﴾	ينزجرون وينتهون عما هم فيه من المعاصي ويتعظون.
﴿ٱلْحَسَنَةُ﴾	العافية والرخاء وسعة الرزق.
﴿يَطَّيَّرُوا۟﴾	يتشاءموا.
﴿طَٰٓئِرُهُمْ﴾	نصيبهم والمقدر لهم من الخير والشر.
﴿ءَايَةٍ﴾	معجزة ودلالة.
﴿لِّتَسْحَرَنَا﴾	لتصرفنا وتحولنا عما نحن فيه.
﴿فَأَرْسَلْنَا﴾	سلَّطنا عليهم.
﴿ٱلطُّوفَانَ﴾	السيل الشديد الجارف- المطر الشديد- الموت – بلاءً حلَّ بهم وطاف بهم.
﴿وَٱلْقُمَّلَ﴾	قيل: السوس- وقيل: القَمْل المعروف- وقيل: الجراد الصغير- وقيل: دواب سوداء صغار.
﴿ءَايَٰتٍ﴾	علامات ودلالات.
﴿مُّفَصَّلَٰتٍ﴾	بينها فواصل زمنية، بعضها يتلو بعضًا.
﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾	فامتنعوا عن الإيمان وتعالوا عن الامتثال لأمر الله عَزَّوَجَلَّ.
﴿مُّجْرِمِينَ﴾	مجترمين للذنوب والكبائر والكفر والمعاصي، عاملين بما يكرهه الله عَزَّوَجَلَّ من المعاصي والذنوب والكبائروالكفر.

الكلمة	معناها
﴿وَقَعَ عَلَيْهِمُ﴾	نزل بهم- حلَّ بهم.
﴿ٱلرِّجْزُ﴾	العذاب- الطاعون- ما سلِّط عليهم من الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وسائر صور العذاب.
﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾	بما أوصاك وأمرك به- بما خصَّك به من العلم بما استودعك من العلم- نسألك بعهده عندك.
﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ﴾	لئن رفعت عنا العذاب بدعاء ربك عَزَّوَجَلَّ.
﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾	لنصدقنك بما جئت به.
﴿وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ﴾	نترك لك بني إسرائيل تسافر بهم وتهاجر بهم كيف تشاء.
﴿كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ﴾	رفعنا عنهم العذاب.
﴿يَنكُثُونَ﴾	ينقضون العهود.
﴿ٱلْيَمِّ﴾	البحر.
﴿يُسْتَضْعَفُونَ﴾	يُستذلون ويهانون ويُمتهنون.
﴿بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾	أكثرنا فيها من الخيرات بإخراج الثمار والزروع والنباتات وأجرينا فيها من الأنهار.
﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ﴾	الوعد الحسن الذي وعدهم به، وقيل: إنه قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ الآية.
﴿يَعْرِشُونَ﴾	يبنون من القصور وسائر الأبنية، وقيل: ما كانوا يعرشون من الحدائق كتعريش العنب في حدائق الأعناب، وعموم ما يحتاج إلى تعريش.

ثالثًا: المعنى الإجمالي للآيات المباركات:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾.

معناه، والله تعالى أعلم، ولقد ابتلينا آل فرعون وهم أتباعه وشيعته- بسنوات الشدة والجدب والقحط، وكذا اختبرناهم بنقص الثمرات فكانت الأرض لا تكاد تنبت إلا قليلًا ابتليناهم بذلك لعلهم يتعظون ويعتبرون وينزجرون عما هم فيه من الغي والضلال والكفر والفساد.

فالسنين المراد بها سنوات الشدة والفقر والجدب ومنه دعاء النبي ﷺ على القرشيين بقوله: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ».

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ولقد اختبرنا قوم فرعون وأتباعه على ما هم عليه من الضلالة ﴿بِٱلسِّنِينَ﴾، يقول: بالجُدوب سنة بعد سنة، والقحوط. يقال منه: «أَسْنَتَ القوم»، إذا أجدبوا. ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، يقول: واختبرناهم مع الجدوب بذهاب ثمارهم وغلاتهم إلا القليل ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾، يقول: عظة لهم وتذكيرًا لهم، لينزجروا عن ضلالتهم، ويفزعوا إلى ربهم بالتوبة.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾.

معناه والله تعالى أعلم، أن آل فرعون إذا صرف الله عنهم المكروه وأبدلهم مكان الضيق سعة ورزقًا واسعًا ومكان الضر في الأبدان عافية وصحة ﴿قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ أي: نحن جديرون بهذا وبأن يكون لنا مثل هذا فنحن أولى بها من غيرنا ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي: إن حلَّ بهم بلاء وضيق في الأرزاق وعدم إخراج الأرض ثمرتها ﴿يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ أي: يتشاءموا بموسى عليه السلام وبالمؤمنين به فيقولون: ما أصابتنا هذه المصائب، وما حلَّ بنا هذا الجدب إلا بعد أن جاءنا موسى عليه السلام، والله أعلم.

قال ابن الجوزي في «زاد المسير»:

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾ وهي الغيث والخصب وسعة الرزق

والسلامة ﴿قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ أي: نحن مستحقوها على ما جرى لنا من العادة في سعة الرزق، ولم يعلموا أنه من الله فيشكُروا عليه. ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ وهي القحط والجدب والبلاء ﴿يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ أي: يتشاءموا بهم. وكانت العرب تزجر الطير، فتتشاءم بالبارح، وهو الذي يأتي من جهة الشمال، وتتبرك بالسانح، وهو الذي يأتي من جهة اليمين.

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ قال أبو عبيدة: ﴿أَلَآ﴾ تنبيه وتوكيد ومجاز. ﴿طَٰٓئِرُهُمْ﴾ حظهم ونصيبهم، وقال ابن عباس: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: إن الذي أصابهم من الله.

وقال الزجاج: المعنى: ألا إن الشؤم الذي يلحقهم هو الذي وُعدوا به في الآخرة، لا ما ينالهم في الدّنيا.

قلت (مصطفى): ودومًا أهل الكفر يتشاءمون ويتطيرون بأهل الإيمان في كثير من الأحيان اذكر ما يدل على ذلك؟

من الأدلة على ذلك ما يلي:

قول أصحاب القرية المذكورين في سورة يس للمرسلين: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾.

وقول قوم ثمود لصالح عليه السلام: ﴿ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾. وقوله تعالى في شأن قول قوم موسى لموسى عليه السلام: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾.

هذا وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ -والله أعلم- إن ما يصيبهم من الخير أو الشر أو السعة أو الضيق أو الشدة أو الرخاء كل ذلك مقدر عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ومكتوب.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ومعناه، والله أعلم، ولكن أكثر هؤلاء المتشاءمين بموسى عليه السلام لا يعلمون أن الأمور مقدرة ومكتوبة، وقد قدرها الله وكتبها.

هذا ويستمر العناد والشقاق من آل فرعون فيقولون لموسى عليه السلام: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

ومعناه والله أعلم، أن قوم فرعون قالوا لموسى عليه السلام: مهما تأتنا به من معجزة لتصرفنا عما نحن فيه وما نحن عليه فما نحن لك بمصدقين وما نحن لك بمتبعين.أو بسياق آخر: وقال قوم فرعون لموسى عليه السلام: إذا جئتنا بأيَّة آية أو بأية معجزة، فما نحن لك بمصدقين ولا بمقرنين ولا متبعين.

فماذا كان، ماذا كان لما أصر آل فرعون على الكفر وتمادوا في الغي؟!!

إنهم أُمهلوا زمنًا أيضًا لعلهم يتذكرون لعلهم يتعظون، فحقًّا إن الله حليم لا يعاجل بالعقوبة!!

لقد أرسل الله عز وجل عليهم آيات وابتلاءات لعلهم يتذكرون –يتعظون–يعتبرون.

إرساله الطوفان على آل فرعون، والمراد به

قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾.

لأهل العلم جملة أقوال في المراد بالطوفان:

أولها وأشرها: أنه المطر الغزير المتلف للزروع والثمار والمُهدم للبيوت والمساكن والمهلك للحرث والماشية والمغرقُ.

الثاني: أن المراد بالطوفان الموت.

الثالث: أن المراد بالطوفان شيءٌ من أمرِ الله عز وجل طاف بهم وأهلكهم كما في قوله تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾.

قال الطبري مختارًا القول الأخير:

والصواب من القول في ذلك عندي، ما قاله ابن عباس، على ما رواه عنه أبو ظبيان أنه أمر من الله طاف بهم، وأنه مصدر من قول القائل: «طاف بهم أمر الله يطوف طُوفَانًا»، كما يقال: «نقص هذا الشيء ينقُص نُقْصَانًا». وإذا كان ذلك

كذلك، جاز أن يكون الذي طاف بهم المطر الشديد، وجاز أن يكون الموتَ الذريعَ.

۞ وأورد الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ شواهد على أن الطوفان يطلق ويُراد به المطر الشديد.

قلت: (مصطفى): وقد أورد الطبري في «تفسيره» وبسنده حديثًا عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «**الطُّوفَانُ الموْتُ**»، إلا أن هذا الحديث لا يثبت عن النبي ﷺ. ففي سنده ضعف واختلاف. والله أعلم.

فأعود قائلًا لقد أرسل الله عَزَّ وَجَلَّ الطوفان على آل فرعون طوفان من ماء، مطرٌ غزيرٌ وسيول وفيضانات دمرت البيوت وأتلفت الزروع وأهلكت المواشي، كل ذلك كي يرجعوا إلى الله ويطلبوا منه كشف الضر ويوحدونه، ويقلعوا عن ظلمهم، فلم ينتفعوا بذلك ولم يُجْد معهم ذلك.

لقد سألوا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يدعو ربه عَزَّ وَجَلَّ كي يكشف عنه الشر ويصرف عنهم الطوفان ووعدوه أنهم سيؤمنوا إذا تم ذلك، فدعا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ربه عَزَّ وَجَلَّ فكشف عنهم ذلك البلاء وتوقف الطوفان، فنقضوا العهد والميثاق ولم يؤمنوا، فتُركوا زمنًا لعلهم يرجعون عن غيِّهم، تركوا فما رجعوا عن كفرهم وما رجعوا عن ضلالهم.

شأنهم في ذلك شأن أهل الكفر والعناد الذين لا يقنعون أن الابتلاءات من عند الله، بل يعزونها دائمًا إلى أسباب دنيوية.

فكأنهم قالوا: قصرنا في عمل الجسور، قصرنا في عمل السدود والحواجز التي تمنع الطوفان، قصَّرنا في كذا وكذا وكذا ولم يقولوا: إن الله هو الذي سلط علينا ذلك فلنرجع إليه.

كأنهم قالوا سنتقن الجسور ونصنع السدود كي لا يدمرنا المطر والطوفان مرة أخرى.

ولكن البلاء جاءهم من طريق آخر، وبعد زمنٍ من البلاء الأول، لأن الله قال: ﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ أي: بينها فواصل زمنية.

لقد تركوا زمنًا بعد الطوفان فلم يتوبوا، كما تركوا من قبل زمنًا بعد أن غُلبوا من موسى بالعصا التي التقفت ما يأفكون فلم يتوبوا أيضًا.

فها هم قد تركوا زمنًا بعد الطوفان كي يتوبوا فلم يتوبوا فسلِّط عليهم بلاء آخر.

إرسال الجراد على آل فرعون

أرسل الله عَزَّوَجَلَّ عليهم جندًا من جنده ألا وهو الجراد[1] أكل الأخضر واليابس وأتلف الزروع والثمار والمحاصيل ودمَّر الحدائق والبساتين فسألوا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يدعو ربه أن يكف عنهم العذاب ويُذهب عنهم الجراد فدعا ربه فأذهبه عنهم فنقضوا العهود والمواثيق فسلَّط الله عليهم القمل يلازم أبدانهم وشعورهم ويتلف ثمارهم ومواشيهم فسألوا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فدعا ربَّه فأذهب ذلك عنهم فرجعوا إلى غيِّهم وكفرهم.

فسلط الله عَزَّوَجَلَّ عليهم القُمل، ولأهل العلم في تفسير القمل أقوال:

أحدها: أن القمل هو الجراد الصغير الذي لا أجنحة له.

الثاني: أن القمل هو السُّوس الذي يكون بالحنطة- بحبة القمح- وغيره.

---

(١) **فائدة:** يجوز أكل الجراد لما أخرجه البخاري (٥٤٩٥) ومسلم (١٩٥٢) من حديث عبد الله ابن أبي أوفى قال: غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات كنا نأكل الجراد معه.

ولأثر عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**أحلت لنا ميتتان ودمان، أما الميتتان: فالسمك والجراد، وأما الدمان: فالكبد والطحال**» وهذا الذي ذكره ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لا يُقال من قبيل الرأي بل يأخذ حكم المرفوع إلى رسول الله ﷺ هذا، وقد روي الخبر عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ مرفوعًا ولا يصح مرفوعًا لكنه صحيح موقوفًا وله حكم المرفوع، والله أعلم.

الثالث: أن القُمَّل هو البراغيث.

الرابع: أن القُمَّل هو القمل المعروف الذي يكون بالرؤوس وفي الشعور.

الخامس: أن القمل دواب صغيرة سوداء.

السادس: أن القمل دواب صغار تأكلها الإبل.

السابع: أنها دواب صغيرة تلازم الجلود والزروع فتتلفها وتلازم الجلود كأنها الجدري.

والحاصل: أنها دواب صغار سلطها الله عَزَّوَجَلَّ على القوم آذتهم وأضرتهم في معايشهم وأبدانهم، والله أعلم.

فأفسدت هذه الدواب على القوم معايشهم وأرقتهم وأتلفت لهم المحاصيل الزراعية المدخرة، وأفسدت شعر رأسهم، ودخلت أسنانهم إلى غير ذلك من وجوه الضرر.

فلما اشتد عليهم ذلك سألوا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يدعو ربَّه عَزَّوَجَلَّ كي ينقذهم مما هم فيه، ووعدوه إن كُشف عنهم ما هم فيه ليصدقنه وليؤمنن به ويتركوا له بني إسرائيل يخرج بهم كما يريد.

فدعا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ربَّه عَزَّوَجَلَّ فكشف عنهم ما هم فيه فنقضوا العهود والمواثيق وأخلفوها وكذبوا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

إرسال الضفادع على آل فرعون

فسُلطت عليهم الضفادع قال بعض أهل العلم: إن الضفادع سلطت عليهم فكانت تسقط- من كثرتها- في أطعمتهم التي في بيوتهم وفي أشربتهم.

وقال بعض العلماء: إنهم كانوا لا يعجنون عجينًا إلا سقطت فيه الضفادع وفردت رجليها فيه، وكان الرجل إذا نام ركبته الضفادع ولا يكاد يُقرَّب له طعام إلا سقطت الضفادع فيه، بل وتكاد أن تقذف بنفسها في فمِه إذا أراد الأكل.

ولا يكاد أحدهم يكشف ثوبًا ولا طعامًا ولا إناء إلا وجد فيه الضفادع قد غلبت عليه، والله أعلم.

أرسل الله عليهم الضفادع كثيرة كثيرة تقفز عليهم وهم نيام وفي طعامهم وهم يأكلون وتملأ عليهم البيوت والحقول والطرقات، فسألوا موسى أن يدعو ربه بصرف هذا عنهم، فدعا فصرفه الله فلم يرجعوا ولم يُقلعوا عن كفرهم.

إرسال الدم على آل فرعون

وفي وصف ذلك أقوال لأهل العلم:

أحدها: أنه سُلِّط عليهم الرِّعاف، الذي هو نزيف الأنف.

الثاني: أن الاستحاضة[1]- نزول الدم من الفرج- سلِّطت على نسائهم فكانت المرأة تنزل عليها الدماء غزيرة وبصورة كبيرة وزمن طويل.

الثالث: أن المياه تحولت إلى دم فلا ينزعون دلوًا من بئرٍ إلا وجدوا فيه الدماء بدلًا من الماء. ولا يستسقون من نهر إلا خرج الدلاء بالدماء بدلًا من الماء، بل ويتحول الماء الذي في البيوت إلى دمٍ، و الله تعالى أعلم.

فسلط عليهم الدم، فتحولت مياهم إلى دماء وكثرت الاستحاضة في نساءهم وأصيبوا بالرعاف (النزيف) الشديد الحاد وهكذا تنوعت البلاءات فلم يرجعوا، وكما قال تعالى في شأن أقوامٍ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾.

أورد الطبري بسندٍ حسن عن قتادة قال:

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ﴾ حَتَّى بَلَغَ: ﴿مُّجْرِمِينَ﴾ قَالَ: أَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْمَاءَ حَتَّى قَامُوا فِيهِ قِيَامًا، فَدَعَوْا مُوسَى فَدَعَا رَبَّهُ، فَكَشَفَ عَنْهُمْ، ثُمَّ عَادُوا لسوء مَا يَحْضُرُ

(١) كما هو معلوم أن الاستحاضة غير الحيضة، فالاستحاضة دم يخرج كنزيف من فرج المرأة لونه لون دم الجروح وليست رائحته كرائحة دم الحيض ويخرج في أي وقت.

بِهِمْ، ثُمَّ أَنْبَتَتْ أَرْضُهُمْ. ثُمَّ أَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَرَادَ، فَأَكَلَ عَامَّةَ حُرُوثِهِمْ وَثِمَارِهِمْ، ثُمَّ دَعَوْا مُوسَى فَدَعَا رَبَّهُ فَكَشَفَ عَنْهُمْ. ثُمَّ عَادُوا بِشرٍّ مَا يَحْضُرُ بِهِمْ، فَأَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْقُمَّلَ، هَذَا الدَّبَى الَّذِي رَأَيْتُمْ، فَأَكَلَ مَا أَبْقَى الْجَرَادُ مِنْ حُرُوثِهِمْ، فَلَحَسَهُ. فَدَعَوْا مُوسَى، فَدَعَا رَبَّهُ، فَكَشَفَهُ عَنْهُمْ، تَمَّ عَادُوا بِشرٍّ مَا يَحْضُرُ بِهِمْ.

ثُمَّ أَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمُ الضَّفَادِعَ، حَتَّى مَلَأَتْ بُيُوتَهُمْ وَأَفْنِيَتَهُمْ، فَدَعَوْا مُوسَى، فَدَعَا رَبَّهُ فَكَشَفَ عَنْهُمْ. ثُمَّ عَادُوا بِشَرٍّ مَا يَحْضُرُ بِهِمْ، فَأَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمُ الدَّمَ، فَكَانُوا لَا يَغْتَرِفُونَ مِنْ مَائِهِمْ إِلَّا دَمًا أَحْمَرَ، حَتَّى لَقَدْ ذُكِرَ أَنَّ عَدُوَّ اللهِ فِرْعَوْنَ كَانَ يَجْمَعُ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ عَلَى الْإِنَاءِ الْوَاحِدِ، الْقِبْطِيِّ وَالْإِسْرَائِيلِيِّ، فَيَكُونُ مِمَّا يَلِي الْإِسْرَائِيلِيَّ مَاءً، وَمِمَّا يَلِي الْقِبْطِيَّ دَمًا. فَدَعَوْا مُوسَى، فَدَعَا رَبَّهُ، فَكَشَفَهُ عَنْهُمْ فِي تِسْعِ آيَاتٍ: السِّنِينَ، وَنَقَصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ، وَأَرَاهُمْ يَدَ مُوسَى عليه السلام وَعَصَاهُ.

قلت (مصطفى): وكما سلف فإن هذه المعجزات كان بينها فواصل زمنية، وذلك لقوله تعالى: ﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ فمعناها، والله أعلم، علامات ودلالات يُستدل بها على نبوة موسى عليه السلام، وذلك لكونه دعا الله لهم فاستجاب الله دعاءه، أما ﴿مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ أي: بينها فواصل زمنية، فبين كل ابتلاء وابتلاء فاصلٌ زمني كي يراجعوا أنفسهم ويرجعوا عن غيِّهم ويفكروا فيما هم عليه من باطلٍ؛ لعلهم أن يقلعوا عنه.

هذا، وقد كان موسى عليه السلام يطالب فرعون بأن يترك له بنى إسرائيل كي يخرج بهم من بلاد مصر إلى بلاد أُخر يعبدون الله وحده ولا يشركون به شيئًا، وقد أمره ربُّه عز وجل بذلك قال تعالى لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٦، ١٧].

وأعود فأقول: إن قوم فرعون كثر منهم - كما سلف - نقض العهد والميثاق وتكرر ذلك منهم كثيرًا، وتلك عادة أهل الكفر لا عهد لهم ولا ميثاق، قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا

﴿جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر: ٤٢] وهنا قال تعالى ذِكره في شأن قوم فرعون: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

وعن المعنى الإجمالي، والله أعلم، أن آل فرعون لما نزل بهم من العذاب والبلاء ما قد نزل، من الطاعون أو الموت أو الابتلاءات المذكورة في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ﴾، اتجهوا إلى موسى عليه السلام يطلبون منه أن يسأل ربَّه ويدعوه-بما علمه من دعاءٍ وعلمٍ ولما اختصه به من النبوة- أن يكشف عنهم البلاء الذي هم فيه وأن يرفع عنهم العذاب ووعدوه أن ذلك إذا حصل وكُشف عنهم البلاء وُرفع عنهم العذاب أن يؤمنوا به ويصدقوه ويتبعوه على ما جاء به وأيضًا أن يتركوا له بني إسرائيل يخرج بهم من أرض مصر التي كانت محلًّا لاضطهادهم وتعذيبهم.

وقال ابن الجوزي في «زاد المسير» في معناها:

أحدها: أن معناه: بما أوصاك أن تدعوه به.

الثاني: بما تقدم به إليك أن تدعوه فيجيبك.

والثالث: بما عهد عندك في كشف العذاب عمن آمن.

والرابع: أن ذلك منهم على معنى القسم، كأنهم أقسموا عليه بما عهد عنده أن يدعو لهم.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾.

معناه -والله تعالى أعلم- قوم فرعون لما سألوا موسى عليه السلام أن يدعو ربه بكشف البلاء والعذاب عنهم وعاهدوه أن يؤمنوا له ويرسلوا معه بني إسرائيل، فحينئذٍ دعا موسى عليه السلام ربَّه عزوجل فكشف الله عنهم البلاء ورفع عنهم العذاب.

وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾ معناه إلى وقت انقضاء آجالهم، فلكل أمة أجل.

فماذا كان لما رفع عنهم البلاء وكُشف عنهم العذاب.

لقد نقضوا العهد والميثاق مع موسى عليه السلام واستمروا على كفرهم وضلالهم وغيهم.

قول ابن كثير رحمه الله في كتاب «قصص الأنبياء» حول الآيات المذكورة:

قال رحمه الله:

يخبر تَعَالَى أنه ابتلى آل فِرْعَوْن وهم قَوْمُهُ مِنَ الْقِبْطِ، بِالسِّنِينَ وَهِيَ أَعْوَامُ الْجَدْبِ الَّتِي لَا يُسْتَغَلُّ فِيهَا زَرْعٌ وَلَا يُنْتَفَعُ بضرع.

وَقَوله: ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ وَهِيَ قِلَّةُ الثِّمَارِ مِنَ الْأَشْجَارِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أَي فَلم ينتفعوا وَلم يرتدعوا، بَلْ تَمَرَّدُوا وَاسْتَمَرُّوا عَلَى كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ.

﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾ وَالْخصب وَنَحْوه ﴿قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ أَيْ هَذَا الَّذِي نَسْتَحِقُّهُ، وَهَذَا الَّذِي يَلِيقُ بِنَا ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ أَيْ يَقُولُونَ هَذَا بِشُؤْمِهِمْ أَصَابَنَا هَذَا، وَلَا يَقُولُونَ فِي الأول إِنَّه ببركتهم وَحسن مجاورتهم لَهُم وَلَكِنَّ قُلُوبَهُمْ مُنْكِرَةٌ مُسْتَكْبِرَةٌ نَافِرَةٌ عَنِ الْحَقِّ، إِذَا جَاءَ الشَّرُّ أَسْنَدُوهُ إِلَيْهِ، وَإِنْ رَأَوْا خَيْرًا ادَّعَوْهُ لِأَنْفُسِهِمْ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أَي اللهُ يَجْزِيهِمْ عَلَى هَذَا أَوْفَرَ الْجَزَاءِ.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أَيْ مَهْمَا جِئْتَنَا بِهِ مِنَ الْآيَاتِ - وَهِيَ الخوارق للعادات - فلسنا نؤمن بك وَلَا نَتَّبِعُكَ وَلَا نُطِيعُكَ، وَلَوْ جِئْتَنَا بِكُلِّ آيَةٍ.

وَهَكَذَا أَخْبَرَ اللهُ عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

قَـالَ اللهُ تَعَـالَى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ أَمَّا الطُّوفَانُ فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: هُوَ كَثْرَةُ الأمطار المغرقة الْمُتْلِفَةِ لِلزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ، وَبِهِ قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَالضَّحَّاكُ وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعَطَاءٍ: هُوَ كَثْرَةُ الْمَوْتِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الطُّوفَانُ الْمَاءُ وَالطَّاعُونُ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَمْرٌ طَافَ بِهِمْ.

ثم قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ:

وَأَمَّا الْجَرَادُ فَمَعْرُوفٌ، وقال - بعد أن ذكر بعض الأحاديث في الجراد- وَالْمَقْصُودُ أَنَّهُ اسْتَاقَ خَضْرَاءَهُمْ فَلَمْ يَتْرُكْ لَهُمْ زرعا وَلَا ثِمَارًا وَلَا سَبَدًا وَلَا لَبَدًا[1].

وَأَمَّا الْقُمَّلُ فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: هُوَ السُّوسُ الَّذِي يَخْرُجُ مِنَ الْحِنْطَةِ.

وَعَنْهُ أَنَّهُ الْجَرَادُ الصِّغَارُ الَّذِي لَا أَجْنِحَةَ لَهُ، وَبِهِ قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَقَتَادَةُ.

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالْحَسَنُ: هُوَ دَوَابُّ سُودٌ صِغَارٌ.

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: الْقمل هِيَ الْبَرَاغِيثُ.

وَحَكَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَهْلِ الْعَرَبِيَّةِ: أَنَّهَا الْحَمْنَانُ وَهُوَ صِغَارُ الْقِرْدَانِ فَوْقَ القمامة فَدخل مَعَهم الْبيُوت والفرش فلم يَقِرَّ لَهُمْ قَرَارٌ، وَلَمْ يُمْكِنْهُمْ مَعَهُ الْغَمْضُ وَلَا الْعَيْشُ.

وَفَسَّرَهُ عَطَاءُ بْنُ السَّائِبِ بِهَذَا الْقُمَّلِ الْمَعْرُوفِ.

وَقَرَأَهَا الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ كَذَلِكَ بِالتَّخْفِيفِ.

وَأَمَّا الضَّفَادِعُ فَمَعْرُوفَةٌ، لَبَّسَتْهُمْ حَتَّى كَانَتْ تَسْقُطُ فِي أطعمتهم وأوانيهم.

حَتَّى إِن أحدهم إِذا فتح فَاه لطعام أَو شراب سَقَطت فِيهِ ضِفْدِعَةٌ مِنْ تِلْكَ الضَّفَادِعِ.

وَأَمَّا الدَّمُ فَكَانَ قَدْ مُزِجَ مَاؤُهُمْ كُلُّهُ بِهِ فَلَا يَسْتَقُونَ مِنَ النِّيلِ شَيْئًا إِلَّا وَجَدُوهُ

---

(١) أي لا قليلًا ولا كثيرًا.

دَمًا عَبِيطًا[1]، وَلَا مِنْ نَهْرٍ وَلَا بِئْرٍ وَلَا شيء إِلَّا كَانَ دَمًا فِي السَّاعَةِ الرَّاهِنَةِ.

هَذَا كُلُّهُ وَلَمْ يَنَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ ذَلِكَ شيء بِالْكُلِّيَّةِ.

وَهَذَا مِنْ تَمَامِ الْمُعْجِزَةِ الْبَاهِرَةِ، وَالْحُجَّةِ الْقَاطِعَةِ، أَنَّ هَذَا كُلَّهُ يَحْصُلُ لَهُمْ عَنْ فِعْلِ مُوسَى عليه السلام، فَيَنَالُهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ، وَلَا يَحْصُلُ هَذَا لِأَحَدٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَفِي هَذَا أَدَلُّ دَلِيلٍ.

قال ابن كثير:

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاق: فَرَجَعَ عَدُوُّ اللهِ فِرْعَوْنُ حِينَ آمَنَتِ السَّحَرَةُ مَغْلُوبًا مغلولًا، ثُمَّ أَبَى إِلَّا الْإِقَامَةَ عَلَى الْكُفْرِ وَالتَّمَادِيَ فِي الشَّرِّ، فَتَابَعَ اللهُ عَلَيْهِ بِالْآيَاتِ، فَأَخَذَهُ بِالسِّنِينَ: فَأَرْسَلَ عَلَيْهِ الطُّوفَانَ ثُمَّ الْجَرَادَ، ثُمَّ الْقُمَّلَ، ثُمَّ الضَّفَادِعَ، ثُمَّ الدَّمَ، آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ، فَأَرْسَلَ الطُّوفَانَ - وَهُوَ الْمَاءُ - فَفَاضَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ثُمَّ رَكَدَ، لَا يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يَحْرُثُوا وَلَا أَنْ يَعْمَلُوا شَيْئًا، حَتَّى جُهِدُوا جوعًا.

فَلَمَّا بَلَغَهُمْ ذَلِك: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف: ١٣٤].

فَدَعَا مُوسَى رَبَّهُ فَكَشَفَهُ عَنْهُمْ. فَلَمَّا لَمْ يفوا لَهُ بشيء مِمَّا قَالُوا أرسل اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَرَادَ، فَأَكَلَ كُلَّ الشَّجَرَ فِيمَا بَلَغَنِي، حَتَّى إِنْ كَانَ لَيَأْكُلُ مَسَامِيرَ الْأَبْوَابِ مِنَ الْحَدِيدِ حَتَّى تَقَعَ دُورُهُمْ وَمَسَاكِنُهُمْ، فَقَالُوا مِثْلَ مَا قَالُوا، فَدَعَا رَبَّهُ فَكَشَفَ عَنْهُمْ، فَلَمْ يفوا لَهُ بشيء مِمَّا قَالُوا، فَأَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْقُمَّلَ، فَذَكَرَ لِي أَنَّ مُوسَى عليه السلام، أُمِرَ أَنْ يَمْشِيَ إِلَى كَثِيبٍ حَتَّى يَضْرِبَهُ بِعَصَاهُ فَمَشَى إِلَى كَثِيبٍ أَهْيَلَ عَظِيمٍ، فَضَرَبَهُ بِهَا، فَانْثَالَ عَلَيْهِمْ قُمَّلًا، حَتَّى غَلَبَ عَلَى الْبُيُوتِ وَالْأَطْعِمَةِ، ومنعهم النّوم والقرار فَلَمَّا جَهَدَهُمْ قَالُوا لَهُ مِثْلَ مَا قَالُوا لَهُ، فَدَعَا رَبَّهُ فَكَشَفَ عَنْهُمْ فَلَمْ يَفُوا لَهُ بشيء مِمَّا قَالُوا، فَأَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمُ الضَّفَادِعَ، فَمَلَأَتِ الْبُيُوت والأطعمة

---

(١) عبيطًا أي طريًّا.

والآنية، فَلَا يَكْشِفْ أَحَدٌ ثَوْبًا وَلَا طَعَامًا، إِلَّا وَجَدَ فِيهِ الضَّفَادِعَ قَدْ غَلَبَتْ عَلَيْهِ.

فَلَمَّا جَهَدَهُمْ ذَلِكَ قَالُوا لَهُ مِثْلَ مَا قَالُوا، فَدَعَا ربه فكشف عَنْهُم، فَلم يفوا بشيء مِمَّا قَالُوا، فَأَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمُ الدَّمَ، فَصَارَتْ مِيَاهُ آلِ فِرْعَوْنَ دَمًا، لَا يَسْتَقُونَ مِنْ بِئْرٍ وَلَا نَهْرٍ، وَلَا يَغْتَرِفُونَ مِنْ إِنَاءٍ، إِلَّا عَادَ دَمًا عَبِيطًا.

وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: الْمُرَادُ بِالدَّمِ الرُّعَافُ، رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٤-١٣٦].

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ كُفْرِهِمْ وَعُتُوِّهِمْ وَاسْتِمْرَارِهِمْ عَلَى الضَّلَالِ وَالْجَهْلِ، وَالِاسْتِكْبَارِ عَنِ اتِّبَاعِ آيَاتِ اللهِ، وتصديق رَسُوله، مَعَ مَا أيده بِهِ مِنَ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ الْبَاهِرَةِ، وَالْحُجَجِ الْبَلِيغَةِ الْقَاهِرَةِ، الَّتِي أَرَاهُمُ اللهُ إِيَّاهَا عِيَانًا، وَجَعَلَهَا عَلَيْهِمْ دَلِيلًا وَبُرْهَانًا.

وَكُلَّمَا شَاهَدُوا آيَةً وَعَايَنُوهَا، وَجَهْدهمْ وأضنكهم، حلفوا وعاهدوا مُوسَى لَئِنْ كَشَفَ عَنْهُمْ هَذِهِ لِيُؤْمِنُنَّ بِهِ، وَلَيُرْسِلُنَّ مَعَهُ مَنْ هُوَ مِنْ حِزْبِهِ، فَكُلَّمَا رُفِعَتْ عَنْهُمْ تِلْكَ الْآيَةُ عَادُوا إِلَى شَرٍّ مِمَّا كَانُوا عَلَيْهِ، وَأَعْرَضُوا عَمَّا جَاءَهُمْ بِهِ مِنَ الْحَقِّ وَلَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَيْهِ، فَيُرْسِلُ اللهُ عَلَيْهِمْ آيَةً أُخْرَى هِيَ أَشَدُّ مِمَّا كَانَتْ قبلها وَأقوى، فَيَقُولُونَ ويكذبون، وَيَعِدُونَ وَلَا يَفُونَ: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ فَيُكْشَفُ عَنْهُمْ ذَلِكَ الْعَذَابُ الْوَبِيلُ، ثُمَّ يَعُودُونَ إِلَى جَهْلِهِمُ الْعَرِيضِ الطَّوِيلِ. هَذَا، وَالْعَظِيمُ الْحَلِيمُ الْقَدِيرُ، يُنْظِرُهُمْ وَلَا يَعْجَلُ عَلَيْهِمْ، وَيُؤَخِّرُهُمْ وَيَتَقَدَّمُ بِالْوَعِيدِ إِلَيْهِمْ.

ثُمَّ أَخَذَهُمْ بَعْدَ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ، وَالْإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ، أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ، فَجَعَلَهُمْ عِبْرَةً وَنَكَالًا وَسَلَفًا لِمَنْ أَشْبَهَهُمْ مِنَ الْكَافِرِينَ، وَمَثَلًا لِمَنِ اتَّعَظَ بِهِمْ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ.

نهاية الظالمين

أعود فأقول (مصطفى):

فماذا كان لما استمر فرعون وقومه في التكذيب والكفر والعناد.

قال تعالى: ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾

ومعناه: والله تعالى أعلم، أن قوم فرعون لما نقضوا العهود والمواثيق التي أعطوها لنبي الله ﷺ، فقد أعطوه عهودًا ومواثيق أن يؤمنوا إذا كشف عنهم العذاب فكشف الله عنهم العذاب فنقضوا العهود والمواثيق فأحلَّ الله بهم نقمته، وأنزل الله عليهم عذابه فأغرقهم في البحر، وذلك أيضًا لتكذيبهم بآيات الله وإنكارهم لها واتهامهم موسى عليه السلام بالسحر، ولكونهم تغافلوا عن الآيات والنِّقم التي يُمكن أن تحلَّ بهم وأن تنزل عليهم.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُمْ لَمَّا عَتَوَا وَتَمَرَّدُوا، مَعَ ابْتِلَائِهِ إِيَّاهُمْ بِالْآيَاتِ الْمُتَوَاتِرَةِ وَاحِدَةٍ بَعْدَ وَاحِدَةٍ، أَنَّهُ انْتَقَمَ مِنْهُمْ بِإِغْرَاقِهِ إِيَّاهُمْ فِي الْيَمِّ، وَهُوَ الْبَحْرُ الَّذِي فَرَقَهُ لِمُوسَى، فَجَاوَزَهُ وَبَنُو إِسْرَائِيلَ مَعَهُ، ثُمَّ وَرَدَهُ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ عَلَى أَثَرِهِمْ، فَلَمَّا اسْتَكْمَلُوا فِيهِ ارْتَطَمَ عَلَيْهِمْ، فَغَرِقُوا عَنْ آخِرِهِمْ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ بِآيَاتِ اللهِ وَتَغَافُلِهِمْ عَنْهَا.

قوله تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

معنى قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾.

المعنى – والله أعلم– فلما جاءت آل فرعون حججنا واضحة جلية منيرةً يستنيرون بها، ومضيئة يستضيئون بها وبصائر يستبصرون بها وصفوها بأنها

سحر، فوصفوا العصا التي تحوَّلت إلى حية تسعى بأنها سحر، ووصفوا اليد التي تخرج بيضاء للناظرين بأنها سحر، فقالوا: هذا سحر مبين، سحرٌ مظهر لمن رآه، أن فاعله ساحر، أما قوله: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾ أي: وكذبوا رسولنا لما جاءهم بهذه الآيات، وأنكروا أن تكون هذه معجزات من عند الله عَزَّوَجَلَّ مع كونهم في قرار أنفسهم يوقنون أنها من عند الله، ولكن كذبوا بها فظلموا أنفسهم بهذا التكذيب، وكذَّبوا بها كبرًا وتعاليًا على الحق فأهلكوا أنفسهم بهذا الكبر وبذاك التعالي فانظر بعين الاعتبار والاتعاظ إلى ما حلَّ بهؤلاء القوم المفسدين، وكيف كانت عاقبة أمرهم، وبنحو هذا قال العلماء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: فلما جاءت فرعون آياتنا، يعني: أدلتنا وحججنا، على حقيقة ما دعاهم إليه موسى وصحته، وهي الآيات التسع التي ذكرناها قبل.

وقوله: ﴿مُبْصِرَةً﴾ يقول: يبصر بها من نظر إليها ورآها حقيقة ما دلت عليه.

وقال في قوله: ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، يقول: قال فرعون وقومه: هذا الذي جاءنا به موسى سحر مبين، يقول: يبين للناظرين له أنه سحر.

وقوله: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾ يقول: وكذبوا بالآيات التسع أن تكون من عند الله.

وقوله: ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ يقول: وأيقنتها قلوبهم، وعلموا يقينًا أنها من عند الله، فعاندوا بعد تبينهم الحق، ومعرفتهم به.

وأورد بإسناد صحيح عن ابن زيد في قول الله: ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ قال: استيقنوا أن الآيات من الله حقٌّ، فلما جحدوا بها؟ قال: ظلمًا وعلوًّا.

وقوله: ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ يعني بالظلم: الاعتداء، والعلو: الكبر، كأنه قيل: اعتداءً وتكبرًا.

وقال: ومعنى ذلك: وجحدوا بالآيات التسع ظلمًا وعلوًّا، واستيقنتها أنفسهم أنها من عند الله، فعاندوا الحقّ بعد وضوحه لهم، فهو من المؤخر الذي معناه التقديم.

وقوله: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾.

وقال الطبري أيضًا:

ويقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: فانظر يا محمد بعين قلبك كيف كان عاقبة تكذيب هؤلاء الذين جحدوا آياتنا حين جاءتهم مبصرة؟! وماذا حلَّ بهم من إفسادهم في الأرض ومعصيتهم فيها ربهم، وأعقبهم ما فعلوا؟! فإن ذلك أخرجهم من جنات وعيون، وزروع ومقام كريم، إلى هلاك في العاجل بالغرق، وفي الآجل إلى عذاب دائم، لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون. يقول: وكذلك يا محمد سُنتي في الذين كذّبوا بما جئتهم به من الآيات على حقيقة ما تدعوهم إليه من الحق من قومك.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ﴾ أي: بينة واضحة ظاهرة، ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ وأرادوا معارضته بسحرهم فغلبوا وانقلبوا صاغرين.

﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾ أي: في ظاهر أمرهم، ﴿وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾ أي: علموا في أنفسهم أنها حقٌّ من عند الله، ولكن جَحَدوها وعاندوها وكابروها، ﴿ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾ أي: ظلمًا من أنفسهم، سَجِيَّة ملعونة، ﴿وَعُلُوّٗاۚ﴾ أي: استكبارًا عن اتباع الحق؛ ولهذا قال: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ أي: انظر يا محمد كيف كان عاقبة كُفرهم، في إهلاك الله إياهم، وإغراقهم عن آخرهم في صبيحة واحدة.

وفحوى الخطاب يقول: احذروا أيها المكذبون بمحمد، الجاحدون لما جاء به من ربه، أن يصيبكم ما أصابهم بطريق الأولى والأحرى؛ فإن محمدًا، صلوات الله وسلامه عليه أشرف وأعظم من موسى، وبرهانه أدل وأقوى من برهان موسى، بما آتاه الله من الدلائل المقترنة بوجوده في نفسه وشمائله، وما سبقه من البشارات من الأنبياء به، وأخذ المواثيق له، عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً ﴾ أي: واضحة بينة. قال الأخفش: ويجوز مبصرة وهو مصدر كما يقال: الولد مجبنة ﴿ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ جروا على عادتهم في التكذيب فلهذا قال: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ ﴾ أي: تيقنوا أنها من عند الله وأنها ليست سحرًا ولكنهم كفروا بها وتكبروا أن يؤمنوا بموسى وهذا يدل على أنهم كانوا معاندين و﴿ظُلْمًا﴾ ﴿وَعُلُوًّا ۚ﴾ منصوبان على نعت مصدر محذوف أي وجحدوا بها جحودًا ظلمًا وعلوًّا والباء زائدة أي: وجحدوها قاله أبو عبيدة ﴿فَٱنظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ أي: آخر أمر الكافرين الطاغين انظر ذلك بعين قلبك وتدبر فيه الخطاب له والمراد غيره.

تتابع وعظ فرعون وتذكيره وبيان سخريته من نبي الله الكريم موسى عليه السلام في آيات (من سورة الزخرف)

قال الله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾ [الزخرف: ٤٦-٥٦]

ثانيًا: معاني مفردات الآيات المباركات:

الكلمة	معناها
﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾	بحججنا والمعجزات التي أيدنا بها موسى عليه السلام
﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾	أشراف قومه وكبراؤهم
﴿أَكۡبَرُ مِنۡ أُخۡتِهَاۖ﴾	أعظم في الاحتجاج بها عليهم من غيرها - أكبر من التي قبلها
﴿ٱلسَّاحِرُ﴾	المراد هنا العالم
﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾	بالعهد الذي أخبرك الله به (أننا إذا آمنا كشف عنا العذاب)
﴿كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ﴾	رفعنا عنهم البلاء والعذاب
﴿يَنكُثُونَ﴾	ينقضون العهد ويغدرون ويصرون على ضلالتهم
﴿مِن تَحۡتِيۖ﴾	من بين يدي - أمامي
﴿مَهِينٌ﴾	حقير - وضيع - لا منصب له
﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾	لا يستطيع الكلام إلا بصعوبة ولا يستطيع الإفصاح إلا بصعوبة. قال كثير من أهل العلم: وذلك بسبب الجمرة التي تناولها في صِغره فأثَّرت على لسانه ومن ثمَّ على نطقه، كذا قالوا، فالله أعلم.
﴿أَسۡوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾	ما يلبس في الأيدي من الحلي.
﴿مُقۡتَرِنِينَ﴾	متتابعين يقارن بعضهم بعضًا - يمشون مع موسى عليه السلام ويؤيدونه ويقوون أمره
﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ﴾	استخف بعقولهم ولعب بها ودعاهم إلى الضلالة - رآهم جهلة ورأى عقولهم خفيفة فلعب بها
﴿فَأَطَاعُوهُۖ﴾	فأجابوه
﴿ءَاسَفُونَا﴾	أغضبونا - أسخطونا
﴿سَلَفٗا﴾	سلفًا سيئًا، قوم سوء وسلف سيئ لمن عمل بعملهم (فمن الناس من سلفه صالح، وهم الصالحون) (والطالحون سلفهم سيئ وفاسد) - والسلف هم من تقدموا

الكلمة	معناها
﴿وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾	عبرةً لمن بعدهم

وعن المعنى الإجمالي، فأقول، وبالله التوفيق:

حملت الآيات تسليةً لرسول الله محمد ﷺ بتذكيره بما حدث لنبي الله موسى عليه السلام، حتى يصبر كما صبر فحاصل التسلية أولًا:

أنك يا رسول الله، وإن تكن كُذِّبت فقد كذِّبَ موسى من قبلك، وإن يكن قومٌ قد سخروا منك فإن أقوامًا سخروا من رسلهم كذلك، فاصبر كما صبر إخوانك من المرسلين.

وإجمالي معنى الآيات:

ولقد أرسلنا نبينا وكليمنا موسى عليه السلام بحججنا الدالة على واحدنيتنا والدالة على قدرتنا، وكذا الدالة على نبوته ﷺ وعلى أننا أرسلناه، ومن تلك الآيات والحجج العصا التي تتحول إلى حية تسعى، ومنها اليد التي تخرج بيضاء للناظرين، ومنها ما ذكره الله تعالى في كتابه؛ إذ قال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ﴾ إلى غير ذلك من الآيات، أرسلناه بها إلى فرعون وأشراف قومه وكبراء قومه قائلًا لهم: إني رسول رب العالمين فما كان جواب هؤلاء - إذا جاءتهم الآيات - إلا السخرية والضحك والاستهزاء والتكذيب، فما انتفعوا بالآيات ولا أجدت معهم المعجزات.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ولقد أرسلنا يا محمد موسى بحججنا إلى فرعون وأشراف قومه، كما أرسلناك إلى هؤلاء المشركين من قومك، فقال لهم موسى: إني رسول رب العالمين، كما قلت أنت لقومك من قريش: إني رسول الله إليكم.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ يقول: فلما جاء موسى فرعون وملأه

بحججنا وأدلتنا على صدق قوله، فيما يدعوهم إليه من توحيد الله والبراءة من عبادة الآلهة، إذا فرعون وقومه مما جاءهم به موسى من الآيات والعِبر يضحكون؛ كما أن قومك مما جئتهم به من الآيات والعِبر يسخرون، وهذا تسلية من الله عَزَّوَجَلَّ لنبيه ﷺ عما كان يلقى من مشركي قومه، وإعلام منه له، أن قومه من أهل الشرك لن يعدوا أن يكونوا كسائر الأمم الذين كانوا على منهاجهم في الكفر بالله وتكذيب رسله، وندب منه نبيه ﷺ إلى الاستنان في الصبر عليهم بسنن أولي العزم من الرسل، وإخبار منه له أن عقبى مردتهم إلى البوار والهلاك كسنته في المتمردين عليه قبلهم، وإظفاره بهم، وإعلائه أمره، كالذي فعل بموسى عليه السلام، وقومه الذين آمنوا به من إظهارهم على فرعون وملئه.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله موسى عليه السلام أنه ابتعثه إلى فرعون وملئه من الأمراء والوزراء والقادة، والأتباع والرعايا، من القبط وبني إسرائيل، يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وينهاهم عن عبادة ما سواه، وأنه بعث معه آيات عظامًا، كـ:يده وعصاه، وما أرسل معه من الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، ومن نقص الزروع والأنفس والثمرات، ومع هذا كله استكبروا عن اتباعها والانقياد لها، وكذبوها وسخروا منها، وضحكوا ممن جاءهم بها.

وقال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ لما أعلم النبي ﷺ أنه منتقم له من عدوِّه وأقام الحجة باستشهاد الأنبياء واتفاق الكل على التوحيد أكدَّ ذلك بقصة موسى وفرعون وما كان من فرعون من التكذيب وما نزل به وبقومه من الإغراق والتعذيب أي: أرسلنا موسى بالمعجزات وهي التسع الآيات فكذب فجعلت العاقبة الجميلة له فكذلك أنت.

أما عن قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾.

فمعناه، والله تعالى أعلم، وما نبتليهم بابتلاء وننتقم منهم بانتقام إلا وهو أعظم من الذي قبله وكذا ما نريهم من معجزة إلا وهي أعظم في الاحتجاج عليهم من التي قبلها.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وما نرى فرعون وملأه آية، يعني: حجة لنا عليه بحقيقة ما يدعوه إليه رسولنا موسى ﴿إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ يقول: إلا التي نريه من ذلك أعظم في الحجة عليهم وأوكد من التي مضت قبلها من الآيات، وأدل على صحة ما يأمره به موسى من توحيد الله.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ أي: كانت آيات موسى من كبار الآيات وكانت كل واحدة أعظم مما قبلها وقيل: ﴿إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ لأن الأولى تقتضي علمًا والثانية تقتضي علمًا، فتضم الثانية إلى الأولى فيزداد الوضوح ومعنى الأخوة: المشاكلة والمناسبة كما يقال: هذه صاحبة هذه أي: هما قريبتان في المعنى.

قلت (مصطفى): فماذا كان لما لم تُجدِ المعجزات مع فرعون وملئه؟!

لقد أخذهم الله عَزَّوَجَلَّ بالعذاب لعلهم يرجعون عن كفرهم وضلالهم وغيِّهم إلى طريق الله سبحانه وتعالى بعد أن ابتعدوا عنه ويرجعوا إلى توحيده بعد أن أشركوا به، وإلى طاعته بعد عصيانهم له.

فكثيرًا ما يكون الابتلاء لإرجاع الناس إلى دينهم. دلِّل على ذلك.

ومن الأدلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٤]، إلى غير ذلك من الآيات.

فأقول: لقد أخذ الله عَزَّوَجَلَّ آل فرعون بصنوفٍ من العذاب تعددت عليهم صُوره وتنوعت عليهم أشكاله كل ذلك لإرجاعهم عن غيِّهم وضلالهم وكل ذلك ولا يرجعون، فسألوا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لما حلَّ بهم من البلاء ما حل أن يدعو ربَّه كي يكشف عنهم البلاء ويزيل عنهم الشدَّة التي هم فيها ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهۡتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٩].

ادع لنا ربك بالذي عهد به إليك أننا إذا آمنا كشف عنا العذاب، وسنؤمن إذا كشف عنا العذاب وسنهتدي!

فقولهم: (وإنا لمهتدون) حاصل معناه والله أعلم، وإنا لسالكون طريق الحق والإيمان والتوحيد، مؤمنين بك وبما جئت به، مصدقين لك (إذا أنت دعوت ربك فكشف عنا العذاب).

وقال بعض أهل العلم: إن المراد بقولهم: ﴿إِنَّنَا لَمُهۡتَدُونَ ﴾ أي: إننا متبعون للحق، مؤمنون بك فارتدوا بعد إيمانهم.

والأولى أصوب، أي: أن المراد إننا لمهتدون فيما يُستقبل إن أنت دعوت ربك فكشف عنا العذاب.

وهنا قد يطرح سؤال حاصله: كيف يصفون موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالساحر في موقف يريدون فيه منه أن يدعو الله عَزَّوَجَلَّ لهم؟

وأجاب بعض أهل العلم على ذلك بما حاصله أنهم أرادوا بالساحر في هذا المقام – العالم – فلم يكن السحر مذمومًا عندهم، بل كانوا يكرمون السحرة، والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

إن قال لنا قائل: وما وجه قيلهم: يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك، وكيف سموه ساحرًا وهم يسألونه أن يدعو لهم ربه ليكشف عنهم العذاب؟

قيل: إن الساحر كان عندهم معناه: العالم، ولم يكن السحر عندهم ذمًّا، وإنما دعوه بهذا الاسم؛ لأن معناه عندهم كان: يا أيها العالم.

وقوله: ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ يقول: قالوا: إنا لمتبعوك فمصدقوك فيما جئتنا به، وموحدو الله فمبصرو سبيل الرشاد.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وكان علماء زمانهم هم السحرة. ولم يكن السحر عندهم في زمانهم مذموما، فليس هذا منهم على سبيل الانتقاص منهم؛ لأن الحال حال ضرورة منهم إليه، لا تناسب ذلك، وإنما هو تعظيم في زعمهم، ففي كل مرة يَعِدُون موسى إن كشف عنهم هذا أن يؤمنوا ويرسلوا معه بني إسرائيل. وفي كل مرة ينكثون ما عاهدوا عليه، وهذا كقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٣ -١٣٥].

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ في «تيسير الكريم الرحمن»:

﴿وَقَالُوا﴾ عندما نزل عليهم العذاب: ﴿يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ﴾ يعنون موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهذا، إما من باب التهكم به، وإما أن يكون هذا الخطاب عندهم مدحا، فتضرعوا إليه بأن خاطبوه بما يخاطبون به من يزعمون أنهم علماؤهم، وهم السحرة، فقالوا: ﴿يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ أي: بما خصك اللّه به، وفضَّلك به، من الفضائل والمناقب، أن يكشف عنا العذاب ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ إن كشف اللّه عنا ذلك.

فماذا كان لما دعا موسى ربَّه عَزَّوَجَلَّ بكشف البلاء عن بني إسرائيل وارتفع البلاء عنهم؟

لقد ساروا على عادة أسلافهم من أهل الكفر في نقض العهود قال تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

المعنى، والله أعلم، فلما عافيناهم ورفعنا عنهم البلاء الذي ابتليناهم به، وكان من المفترض أن يؤمنوا بناءً على ما أعطوا من عهودٍ ومواثيق إذا هم يغدرون فلا يفون بعهد ولا بميثاق وينقضون العهود والمواثيق ويستمروا على كفرهم وضلالهم بل ازدادوا سخرية واستهزاء بنبي الله موسى عليه السلام.

قال الطبري رحمه الله:

وقوله: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾ يقول تعالى ذكره: فلما رفعنا عنهم العذاب الذي أنزلنا بهم، الذي وعدوا أنهم إن كشف عنهم اهتدوا لسبيل الحق، إذا هم بعد كشفنا ذلك عنهم ينكثون العهد الذي عاهدونا: يقول: يغدرون ويصرون على ضلالهم، ويتمادون في غيِّهم.

فرعون يخطب في قومه

❁ وجمع فرعون قومه وأشرافهم وكبراءهم فخطب فيهم قائلًا:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾.

يا قوم ألست بملك مصر بما فيها، أفعل فيها ما أشاء، وهذه الأنهار كما ترون تجري من بين يدي، أأنا خيرٌ أم هذا الحقير الذي لا يستطيع الكلام؟!

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ﴾ من القبط، فـ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ يعني بقوله: ﴿مِن تَحْتِي﴾: من بين يدي في الجنان.

وقال أيضًا:

وقوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ يقول: أفلا تبصرون أيها القوم ما أنا فيه من النعيم

والخير، وما فيه موسى من الفقر وعي اللسان، افتخر بملكه مصر عدو الله، وما قد مكَّن له من الدنيا استدراجًا من الله له، وحسب أن الذي هو فيه من ذلك ناله بيده وحوله، وأن موسى إنما لم يصل إلى الذي يصفه، فنسبه من أجل ذلك إلى المهانة محتجًّا على جهلة قومه بأن موسى عليه السلام لو كان محقًّا فيما يأتي به من الآيات والعبر، ولم يكن ذلك سحرًا، لأكسب نفسه من الملك والنعمة، مثل الذي هو فيه من ذلك جهلًا بالله واغترارًا منه بإملائه إياه.

وقال أيضًا:

يقوله تعالى ذكره مخبرًا عن قيل فرعون لقومه بعد احتجاجه عليهم بملكه وسلطانه، وبيان لسانه وتمام خلقه، وفضل ما بينه وبين موسى بالصفات التي وصف بها نفسه وموسى: أنا خير أيها القوم، وصفتي هذه الصفة التي وصفت لكم ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ لا شيء له من الملك والأموال مع العلة التي في جسده، والآفة التي بلسانه، فلا يكاد من أجلها يبين كلامه؟

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

يقول تعالى مخبرًا عن فرعون وتمرده وعتوه وكفره وعناده: أنه جمع قومه، فنادى فيهم متبجحًا مفتخرًا بملك مصر وتصرفه فيها: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾، قال قتادة: قد كانت لهم جنان وأنهار ماء، ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؟ أي: أفلا ترون ما أنا فيه من العظمة والملك، يعني: وموسى وأتباعه فقراء ضعفاء. وهذا كقوله تعالى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾ [النازعات: ٢٣ - ٢٥].

وقوله: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ قال السدي: يقول: بل أنا خير من هذا الذي هو مهين. وهكذا قال بعض نحاة البصرة: إن ﴿أَمْ﴾ هاهنا بمعنى «بل». ويؤيد هذا ما حكاه الفراء عن بعض القراء أنه قرأها: (**أما أنا خير من هذا الذي هو مهين**). قال ابن جرير: ولو صحت هذه القراءة لكان معناها صحيحًا

واضحًا، ولكنها خلاف قراءة الأمصار، فإنهم قرؤوا: ﴿أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ﴾؟ على الاستفهام.

قلت: وعلى كل تقدير فإنما يعني فرعون –عليه اللعنة – أنه خير من موسى عليه السلام وقد كذب في قوله هذا كذبًا بينًا واضحًا، فعليه لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة.

ويعني بقوله: ﴿مَهِينٞ﴾ كما قال سفيان: حقير. وقال قتادة والسدي: يعني: ضعيف. وقال ابن جرير: يعني: لا ملك له ولا سلطان ولا مال.

﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ٥٢﴾ يعني: لا يكاد يفصح عن كلامه، فهو عيي حصر.

قال السدي: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ٥٢﴾ أي: لا يكاد يفهم. وقال قتادة، والسدي، وابن جرير: يعني عيي اللسان. وقال سفيان: يعني في لسانه شيء من الجمرة حين وضعها في فيه وهو صغير.

وهذا الذي قاله فرعون –لعنه الله–كذب واختلاق، وإنما حمله على هذا الكفر والعناد، وهو ينظر إلى موسى عليه السلام بعين كافرة شقية، وقد كان موسى عليه السلام من الجلالة والعظمة والبهاء في صورة يبهر أبصار ذوي الألباب. وقوله: ﴿مَهِينٞ﴾ كذب، بل هو المهين الحقير خِلْقةً وخُلُقًا ودينًا. وموسى هو الشريف الرئيس الصادق البار الراشد. وقوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ افتراء أيضًا، فإنه وإن كان قد أصاب لسانه في حال صغره شيء من جهة تلك الجمرة، فقد سأل الله عز وجل أن يحل عقدة من لسانه ليفقهوا قوله، وقد استجاب الله له في قوله: ﴿قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦]، وبتقدير أن يكون قد بقي شيء لم يسأل إزالته، كما قاله الحسن البصري، وإنما سأل زوال ما يحصل معه الإبلاغ والإفهام، فالأشياء الخلقية التي ليست من فعل العبد لا يعاب بها ولا يذم عليها، وفرعون وإن كان يفهم وله عقل فهو يدري هذا، وإنما أراد الترويج على رعيته، فإنهم كانوا جهلة أغبياء.

قلت: وهذا مزيد إيضاح لقوله: ﴿ أَمْ أَنَا ﴾.

ذهب بعض أهل العلم إلى أن ﴿ أَمْ ﴾ هنا استفامية على بابها المعروف، وذهب آخرون منهم إلى أنها بمعنى (بل) وكلا الوجهين متحملٌ ويصح المعنى به.

فالأولى: يستفهم ويطلب جوابهم، وقد استخف قومه فأطاعوه.

والثانية: مفهومها أن يجيب نفسه بقوله: (بل أنا خيرٌ من هذا...)، والله أعلم.

وهنا سؤال: هل كانت هذه العقدة في لسان موسى عليه السلام لا زالت باقية حتى بعد بعثته؟

الظاهر، والله أعلم، أن الله عز وجل قد أذهبها وذلك لقول موسى عليه السلام: ﴿ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ٢٨ ﴾ [طه: ٢٧-٢٨]، وقوله تعالى: ﴿ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ٣٦ ﴾ [طه: ٣٦].

أعود فأقول: إن فرعون طلب أن تُلقى على موسى عليه السلام أسورة من ذهب من السماء حتى يتأكد من رسالته ونبوته وطلب ما طلبه سائر الكفار، طلب أن تنزل الملائكة مع موسى عليه السلام لتأييده وتدعيمه فيما يقوله ويدعيه، فقال: ﴿ فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ ٥٣ ﴾ [الزخرف: ٥٣] متتابعين يمشون معه!

هكذا طلب فرعون، وتبعه قومه السفهاء على ذلك وصدقوه فيما قال.

بيان خفة عقول قوم فرعون واستخفافه بهم

وقوله تعالى: ﴿ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٥٤ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٥٥ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ سَلَفٗا وَمَثَلٗا لِّلۡأٓخِرِينَ ﴾.

معناه - والله تعالى أعلم -: أن فرعون استخف بعقول القوم ولعب بها وقادهم فانقادوا له وأمرهم فسمعوا له وأطاعوا، فقد كانوا أهل فسقٍ وخروج عن الطاعة وأهل انحراف، فسهل عليه قيادتهم، فلما أغضبونا بسوء صنيعهم

وإقرارهم لفرعون؛ إذ قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، وإقرارهم له؛ إذ قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، فانتقمنا منهم بالإغراق في البحر، فأغرقناهم أجمعين، وجعلناهم سلفًا سيئًا لمن يأتي من بعدهم ككفار قريش فإن سألت من السلف لكفار قريش؟ فسلفهم السيئ فرعون ومن معه، وكذا جعلنا قوم فرعون، وما أحللناه بهم من النكال والعذاب عبرة يعتبر بهم من جاء من بعدهم، والله أعلم.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ﴾ قال ابن الأعرابي: المعنى: فاستجهل قومه ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ لخفة أحلامهم وقلة عقولهم يقال: استخفه الفرح أي: أزعجه واستخفه أي: حمله على الجهل ومنه ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]، وقيل: استفزهم بالقوم فأطاعوه على التكذيب وقيل: استخف قومه أي: وجدهم خفاف العقول، وهذا لا يدل على أنه يجب أن يطيعوه فلا بد من إضمار بعيد تقديره وجدهم خفاف العقول، فدعاهم إلى الغواية فأطاعوه وقيل: استخف قومه وقهرهم حتى اتبعوه يقال: استخفه خلاف استثقله واستخف به أهانه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ أي: خارجين عن طاعة الله.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ أي: استخف فرعون عقولهم بما أبدى لهم من هذه الشُّبه، التي لا تسمن ولا تغني من جوع، ولا حقيقة تحتها، وليست دليلًا على حقٍّ ولا على باطل، ولا تروج إلا على ضعفاء العقول.

فأي دليل يدل على أن فرعون محقٌّ، لكون ملك مصر له، وأنهاره تجري من تحته؟

وأي دليل يدل على بطلان ما جاء به موسى لقلة أتباعه، وثقل لسانه، وعدم

تحلية أمه له، بأساور من ذهب؟ ولكن فرعون لقي ملأ لا عقول عندهم، فمهما قال اتبعوه، من حقٍّ وباطل. ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ فبسبب فسقهم، قيض لهم فرعون، يزين لهم الشرك والشر.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب قصص الأنبياء حول هذه الآيات من سورة الزخرف:

يَذْكُرُ تَعَالَى إِرْسَالَهُ عَبْدَهُ الْكَلِيمَ الْكَرِيمَ إِلَى فِرْعَوْنَ الْخَسِيسِ اللَّئِيمِ، وَأَنَّهُ تَعَالَى أَيَّدَ رَسُولَهُ بآيَات بَيِّنَات واضحات، تسْتَحقّ أَن تقَابل بالتعظيم والتصديق، وَأَن يرتدعوا عماهم فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ وَيَرْجِعُوا إِلَى الْحَقِّ وَالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، فَإِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ وَبِهَا يَسْتَهْزِئُونَ، وَعَن سَبِيل الله يصدون وَعَن الْحق يَنْصَرِفُونَ.

فَأَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْآيَاتِ تَتْرَى يَتْبَعُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وكل آية أكبر من الَّتِي تتلوها، لأَن التوكيد أَبْلَغُ مِمَّا قَبْلَهُ.

﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ
(٤٨) وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾ لم يكن لفظ السَّاحر فِي زمنهم نَقْصًا وَلَا عَيْبًا، لِأَنَّ عُلَمَاءَهُمْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ هُمُ السَّحَرَةُ، وَلِهَذَا خَاطَبُوهُ بِهِ فِي حَالِ احْتِيَاجِهِمْ إِلَيْهِ، وَضَرَاعَتِهِمْ لَدَيْهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾.

ثُمَّ أَخبر تَعَالَى عَنْ تَبَجُّحِ فِرْعَوْنَ بِمُلْكِهِ، وَعَظْمَةِ بَلَدِهِ وحسنها، وتخرق الأنهار فِيهَا، وَهِي الخلجانات الَّتِي يكسرونها أَيَّام زِيَادَةِ النِّيلِ ثُمَّ تَبَجَّحَ بِنَفْسِهِ وَحِلْيَتِهِ، وَأَخَذَ يَتَنَقَّصُ رَسُولَ اللهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَيَزْدَرِيهِ بِكَوْنِهِ ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ يَعْنِي كَلَامَهُ، بِسَبَبِ مَا كَانَ فِي لِسَانِهِ مِنْ بَقِيَّةِ تِلْكَ اللُّثْغَةِ، الَّتِي هِيَ شَرَفٌ لَهُ وَكَمَالٌ وَجَمَالٌ، وَلَمْ تَكُنْ مَانِعَةً لَهُ أَنْ كَلَّمَهُ اللهُ تَعَالَى وَأَوْحَى إِلَيْهِ، وَأَنْزَلَ بعد ذَلِك التَّوْرَاة عَلَيْهِ.

وَتَنَقَّصَهُ فِرْعَوْنُ - لَعَنَهُ اللهُ - بِكَوْنِهِ لَا أَسَاوِرَ فِي يَدَيْهِ، وَلَا زِينَةَ عَلَيْهِ! وَإِنَّمَا ذَلِكَ مِنْ حِلْيَةِ النِّسَاءِ، لَا يَلِيقُ بِشَهَامَةِ الرِّجَالِ، فَكَيْفَ بِالرُّسُلِ الَّذِينَ هُمْ أَكْمَلُ عَقْلًا، وَأَتَمُّ مَعْرِفَةً، وَأَعْلَى هِمَّةً وَأَزْهَدُ فِي الدُّنْيَا، وَأَعْلَمُ بِمَا أَعَدَّ اللهُ لِأَوْلِيَائِهِ فِي الْأُخْرَى؟ وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ لَا يحْتَاج الأمر إِلَى ذَلِك، فَإِن كَانَ الْمُرَادُ أَنْ تُعَظِّمَهُ الْمَلَائِكَةُ فَالْمَلَائِكَةُ يُعَظِّمُونَ وَيَتَوَاضَعُونَ لِمَنْ هُوَ دُونَ مُوسَى عليه السلام بِكَثِيرٍ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «**إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا يَصْنَعُ**» فكيف يَكُونُ تَوَاضُعُهُمْ وَتَعْظِيمُهُمْ لِمُوسَى الْكَلِيمِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالتَّسْلِيمُ وَالتَّكْرِيمُ! وَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ شَهَادَتَهُمْ لَهُ بِالرِّسَالَةِ فَقَدْ أُيِّدَ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ بِمَا يَدُلُّ قَطْعًا لِذَوِي الْأَلْبَابِ، وَلِمَنْ قَصَدَ إِلَى الْحَقِّ وَالصَّوَابِ، وَيَعْمَى عَمَّا جَاءَ بِهِ مِنَ الْبَيِّنَاتِ والحجج الواضحات مَنْ نَظَرَ إِلَى الْقُشُورِ، وَتَرَكَ لُبَّ اللُّبَابِ، وَطَبَعَ عَلَى قَلْبِهِ رَبُّ الْأَرْبَابِ، وَخَتَمَ عَلَيْهِ بِمَا فِيهِ مِنَ الشَّكِّ وَالِارْتِيَابِ، كَمَا هُوَ حَالُ فِرْعَوْنَ الْقِبْطِيِّ الْعَمِيِّ الْكَذَّابِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ أَيْ اسْتَخَفَّ عُقُولَهُمْ وَدَرَّجَهُمْ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ إِلَى أَنْ صَدَّقُوهُ فِي دَعْوَاهُ الرُّبُوبِيَّةِ، لَعَنَهُ اللهُ وَقَبَّحَهُمْ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ أَي أغضبونا ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أَيْ بِالْغَرَقِ وَالْإِهَانَةِ وَسَلْبِ الْعِزِّ، وَالتَّبَدُّلِ بِالذُّلِّ وبالعذاب بعد النِّعْمَة، وَالْهَوَانِ بَعْدَ الرَّفَاهِيَةِ، وَالنَّارِ بَعْدَ طِيبِ الْعَيْشِ، عِيَاذًا بِاللهِ الْعَظِيمِ، وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ مِنْ ذَلِكَ.

﴿فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا﴾ أَيْ لِمَنِ اتَّبَعَهُمْ فِي الصِّفَاتِ ﴿وَمَثَلًا﴾ أَيْ لِمَنِ اتَّعَظَ بِهِمْ وَخَافَ مِنْ وَبِيلِ مَصْرَعِهِمْ، مِمَّنْ بَلَغَهُ جَلِيَّةُ خَبَرِهِمْ وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ.

(٣٦٢) أحمر أسود

الفصل السابع

نجاة نبي الله موسى عليه السلام مع بني إسرائيل وهلاك فرعون وجنوده ووراثة بني إسرائيل ديار فرعون وجنوده

وبيان ذلك من السور الآتية:

سورة الشعراء من آية ٥٢ إلى ٦٨.

سورة الدخان من آية ٢٢ إلى ٣٣.

سورة يونس عليه السلام من آية ٩٠ إلى ٩٢.

سورة طه من آية ٧٧ إلى ٩٩.

سورة الصافات من آية ١١٥ إلى آية ١٢٢.

(٣٦٤) أحمر أسود

هلاك فرعون الطاغية بالغرق وهلاك جنوده معه

تقدم أن موسى عليه السلام ذهب إلى فرعون ودعاه إلى الله عز وجل وكذا دعا آل فرعون، دعاهم إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والقول اللين الطيب كما أمره الله عز وجل.

ودلل موسى عليه السلام على رسالته ونبوته بما آتاه الله عز وجل من الآيات الباهرات والمعجزات النيرات كالعصا واليد، ونصره الله عز وجل على السحرة الذين أتى بهم فرعون، وخروا سجدًا لرب العالمين رب موسى وهارون.

ومع ذلك كله لم يؤمن فرعون بل ازداد عتوًّا وفسادًا وتكذيبًا وتعاليًا وكبرًا وتمادى في الغيّ هو وقومه وتوعد موسى عليه السلام وكذا توعد السحرة لما آمنوا.

فسلط الله عز وجل على آل فرعون أنواعًا من الابتلاءات والشدائد والفتن لعلهم يرجعوا عن غيّهم وضلالهم وتنوعت عليهم صور الابتلاءات كما تقدم!!

فابتلاهم الله بسنوات الجفاف ومُنع القطر من السماء فأجدبت الأرض وتلفت الزروع وهلكت المواشي وانتشرت المجاعات!! فسألوا موسى أن يدعو ربَّه لكشف ذلك عنهم ووعدوه أن يؤمنوا فدعا ربَّه فلم يؤمنوا ونكثوا العهود ونقضوا المواثيق، فتكررت عليهم ابتلاءات بأشكال أُخر وصورٍ أُخر.

سلِّط عليهم طوفان، فيضان عظيم وسيول عظيمة- كما تقدم، فدمرتهم.

وسلِّط عليهم الجراد فدمر مزارعهم وأهلك زروعهم!!

وسلِّط عليهم القمل، وكذا الضفادع، وكذا الدم، وفي كل ذلك يَعِدُون موسى عليه السلام أنهم سيؤمنوا به ويرسلوا معه بني إسرائيل إن كَشف عنهم الضر وفي كل ذلك ينقضون العهود والمواثيق - على ما تقدم - بيانه وازدادوا إجرامًا، وبلغ الأمر بفرعون على أن يقول: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧] وكلما جاءتهم آيةٌ كذبوا بها وسخروا من موسى عليه السلام ومن هارون عليه السلام فدعا عليهم نبيُّ الله

موسى ومعه أخوه هارون عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨].

دعا عليهم موسى وهو نبي كريم، ورسول كليم كلمه الله عز وجل.

وأمَّن هارون عليه السلام على دعاء موسى صلى الله عليه وسلم، وهارون نبي كريم فكيف ترى دعاء المتقين المقربين؟!!

دعا عليهم موسى وهارون عليهما السلام وهما مظلومان وقبيلتهما مظلومة كذلك فكيف ترى دعوة المظلوم؟!!

أعود فأقول (مصطفى): دعا عليهم موسى عليه السلام، وبيَّن سبب دعائه عليهم فقد خشي على المؤمنين الذين آمنوا معه أن يفتنوا!!

دعا عليهم موسى عليه السلام وبيَّن العلة بقوله: ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ﴾ يصرفون الناس عن طريقك وعبادتك وتوحيدك فجديرٌ بالدعوة أن تستجاب إن شاء الله.

إنها دعوة نبي –دعوة نبيين كريمين ورسولين أمينين!!

دعوة مظلوم –دعوة لدفع الشر والمكروه دعوة لإزالة الظلم وإزاحة الباطل فجدير بها أن تجاب فالله سميع الدعاء.

فإلى بعض الآيات المباركات التي بيِّنت فيها مصارع الطغاة والجبابرة والتي فُصِّلت فيها قصة هلاك فرعون وجنده.

آيات من سورة الشعراء

قال الله تعالى: ﴿۞ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ٥٢ فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ٥٣ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ٥٤ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ٥٥ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ٥٦ فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ٥٧ وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٥٩ فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ ٦٠ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ٦١ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٦٢ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب

بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء: ٥٢-٦٨].

ذكر معاني مفردات هذه الآيات:

الكلمة	معناها
﴿أَسْرِ بِعِبَادِىٓ﴾	اخرج ليلًا بعبادي (الذين هم آنذاك بنو إسرائيل وعموم من آمن بموسى عليه السلام)
﴿مُّتَّبَعُونَ﴾	سيتبعكم فرعون لإدراككم والقبض عليكم
﴿ٱلْمَدَآئِنِ﴾	مُدن مصر التي يحكمها فرعون
﴿حَٰشِرِينَ﴾	جامعين يجمعون له الناس
﴿لَشِرْذِمَةٌ﴾	فئة قليلة مُحتقرة
﴿لَغَآئِظُونَ﴾	لمضايقون - يسببون لنا غيظًا
﴿حَٰذِرُونَ﴾	مستعدون متأهبون قد أخذنا عددنا وأسلحتنا، وقرئ (حذرون) أي: على حذر من هؤلاء وغوائلهم
﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾	منازل حسان - منابر
﴿فَأَتْبَعُوهُم﴾	فساروا خلفهم للحاق بهم وللإتيان بهم
﴿مُّشْرِقِينَ﴾	عند شروق الشمس
﴿تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾	نظر كل فريق إلى الآخر ورآه
﴿لَمُدْرَكُونَ﴾	لملحقون - لملحوق بنا
﴿سَيَهْدِينِ﴾	سيوفقني إلى الطريق الذي فيه نجاتي وسلامتي
﴿كُلُّ فِرْقٍ﴾	كل جانب - كل طائفة من البحر - كل ناحية
﴿كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾	كالجبل العظيم
﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ﴾	قربنا هنالك القوم الآخرين وهم آل فرعون (استدراجًا لهم لإغراقهم)

وعن معنى الآيات المباركات، وقصة إغراق فرعون وجنده أقول، وبالله التوفيق:

لما عزم فرعون ووزراؤه وأتباعه على الانتقام من موسى عليه السلام ومن هارون عليه السلام، وكذا من بني إسرائيل، ومن عموم من آمن، وبدأ فرعون يُجيِّش الجيوش ويجمع الجنود من ها هنا وها هنا لتنفيذ مخططه بشأن استئصال بني إسرائيل ومحوهم من الوجود وقتل موسى وهارون وقتل السحرة وعموم المؤمنين، أوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام وحيًا قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾.

والمعنى - والله أعلم -: وأوحينا إلى موسى أن اخرج ببني إسرائيل ليلًا فإن فرعون ومن معه سيتبعوكم لمنعكم من الخروج وإبقائكم في الإذلال والامتهان.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

وقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ﴾ يقول: وأوحينا إلى موسى إذ تمادى فرعون في غيه وأبى إلا الثبات على طغيانه بعد ما أريناه آياتنا، أن أسر بعبادي؛ يقول: أن سر ببني إسرائيل ليلًا من أرض مصر. ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ إن فرعون وجنده متبعوك وقومك من بني إسرائيل، ليحولوا بينكم وبين الخروج من أرضهم، أرض مصر.

وقال ابن كثير رحمه الله:

لما طال مُقام موسى عليه السلام ببلاد مصر، وأقام بها حُجَج الله وبراهينه على فرعون وملئه، وهم مع ذلك يكابرون ويعاندون، لم يبق لهم إلا العذاب والنكال، فأمر الله موسى عليه السلام، أن يخرج ببني إسرائيل ليلًا من مصر، وأن يمضي بهم حيث يؤمَر، ففعل موسى عليه السلام ما أمره به ربه عز وجل. خرج بهم بعدما استعاروا من قوم فرعون حليًّا كثيرًا، وكان خروجه بهم - فيما ذكر غير واحد من المفسرين - وقت طلوع القمر.

وأقول (مصطفى): فماذا كان من فرعون -عليه لعائن الله- لما علم بخروج موسى عليه السلام وهارون عليه السلام ومعهما بنو إسرائيل؟!!

أقول: كان من أمره ما ذكره الله في كتابه الكريم إذ قال: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾

المعنى - والله أعلم -: أن فرعون -عليه لعنة الله- لما أصبح ووجد موسى عليه السلام قد خرج ببني إسرائيل ومن آمن معه من مصر أرسل رسله إلى مدائن مُلكه يجمعون الجند ويجمعون من استطاعوا لملاحقة موسى عليه السلام ومن معه، قائلًا لهم: إن هؤلاء - يعني موسى عليه السلام ومن آمن به وقومه بني إسرائيل- ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ لفئة قليلة حقيرة، وإنهم دائمًا يغيظوننا، كل يوم يأتوننا بشيءٍ يضايقنا ويغيظنا، وذكر العلماء من أسباب هذه الإغاظة ما يلي:

۞ إيمانهم بموسى عليه السلام وتكذيبهم لفرعون وخروجهم على قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى...﴾ [النازعات: ٢٤].

ومنها أن بني إسرائيل استعاروا حُليًّا من قوم فرعون وخرجوا بها من مصر ومنها - وهو غريب إلا أن عددًا من التابعين قال به- ألا وهو أن الملائكة قتلوا الأبكار من آل فرعون تلك الليلة، وكما أسلفت فهو قول غريب وبعيد ولا أعلم دليلًا عليه.

أما قوله: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (٥٦)﴾ فللعلماء فيه **وجهان:**

أولهما: وإنا لجميع مستعدون قد حملنا سلاحنا وعددنا وأخذنا أهبتنا، وإنا لجميعٌ مقرون.

والثاني: وإنا لجميع حذرون أي: على حذر من هؤلاء فكل يوم تأتينا منهم أمور تجعلنا نحذرهم ونخشاهم ولذا فإني أريد أن أستأصلهم وأقطع دابرهم وآمن شرهم.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: فأرسل فرعون في المدائن يحشر له جنده وقومه ويقول لهم ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني بهؤلاء: بني إسرائيل ﴿لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ﴾ يعني بالشرذمة: الطائفة والعصبة الباقية من عصب جبيرة، وشرذمة كل شيء: بقيته القليلة.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾ يقول: وإن هؤلاء الشرذمة لنا لغائظون، فذكر أن غيظهم إياهم كان قتل الملائكة من قتلت من أبكارهم.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقد يحتمل أن يكون معناه: وإنهم لنا لغائظون بذهابهم منهم بالعواري التي كانوا استعاروها منهم من الحلي، ويحتمل أن يكون ذلك بفراقهم إياهم، وخروجهم من أرضهم بكره لهم لذلك.

وقوله: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ اختلفت القراء في قراءة ذلك، فقرأته عامة قراء الكوفة ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ بمعنى: أنهم معدون مؤدون ذوو أداة وقوة وسلاح. وقرأ ذلك عامة قراء المدينة والبصرة: (**وإنا لجميع حذرون**) بغير ألف. وكان الفراء يقول: كأن الحاذر الذي يحذرك الآن، وكأن الحذر المخلوق حذرًا لا تلقاه إلا حذرًا؛ ومن الحذر قول ابن أحمر:

هل أنسأن يومًا إلى غيره ... إني حوالي وإني حذر

والصواب من القول في ذلك أنهما قراءتان مستفيضتان في قراء الأمصار متقاربتا المعنى، فبأيتهما قرأ القارئ، فمصيب الصواب فيه.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

فلما أصبحوا وليس في ناديهم داعٍ ولا مجيب غاظ ذلك فرعون واشتد غضبه على بني إسرائيل؛ لما يريد الله به من الدمار، فأرسل سريعًا في بلاده حاشرين، أي: مَنْ يحشر الجندَ ويجمعه، كالنُّقباء والحُجَّاب، ونادى فيهم:

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ -يعني: بني إسرائيل -﴿ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ﴾ أي: لطائفة قليلة.

﴿ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴾ أي: كل وقت يصل لنا منهم ما يغيظنا.

﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴾ أي: نحن كل وقت نحذر من غائلتهم، وإني أريد أن أستأصل شأفتهم، وأبيد خضراءهم. فجوزي في نفسه وجنده بما أراد لهم.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ لما كان من سنته تعالى في عباده إنجاء المؤمنين المصدقين من أوليائه المعترفين برسالة رسله وأنبيائه وإهلاك الكافرين المكذبين لهم من أعدائه أمر موسى أن يخرج ببني إسرائيل ليلًا وسماهم عباده لأنهم آمنوا بموسى ومعنى: ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ أي يتبعكم فرعون وقومه ليردوكم وفي ضمن هذا الكلام تعريفهم أن الله ينجيهم منهم فخرج موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ببني إسرائيل سحرًا فترك الطريق إلى الشام على يساره وتوجه نحو البحر فكان الرجل من بني إسرائيل يقول له في ترك الطريق فيقول: هكذا أمرت فلما أصبح فرعون علم بسرى موسى ببني إسرائيل خرج في أثرهم وبعث إلى مدائن مصر لتلحقه العساكر فروي أنه لحقه ومعه مائة ألف أدهم من الخيل سوى سائر الألوان وروي أن بني إسرائيل كانوا ستمائة ألف وسبعين ألفًا والله أعلم بصحته[1] وإنما اللازم من الآية الذي يقطع به أن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ خرج بجمع عظيم من بني إسرائيل وأن فرعون تبعه بأضعاف ذلك، قال ابن عباس: كان مع فرعون ألف جبار كلهم عليه تاج وكلهم أمير خيل والشرذمة الجمع القليل المحتقر والجمع الشراذم قال الجوهري: الشرذمة الطائفة من الناس والقطعة من الشيء وثوب شراذم أي قطع، وأنشد الثعلبي قول الراجز:

جاء الشتاء وثيابي أخلاق ... شراذم يضحك منها النواق

---

(١) ولا أعلم دليلًا على صحته.

النواق من الرجال الذي يروض الأمور ويصلحها قاله في الصحاح واللام في قوله: ﴿لَشِرْذِمَةٌ﴾ لام توكيد وكثيرًا ما تدخل في خبر إن إلا أن الكوفيين لا يجيزون (إن زيدًا لسوف يقوم) والدليل على أنه جائز قوله تعالى: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الشعراء: ٤٩] وهذه لام التوكيد بعينها وقد دخلت على سوف قاله النحاس. ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾ أي أعداء لنا لمخالفتهم ديننا وذهابهم بأموالنا التي استعاروها على ما تقدم وماتت أبكارهم تلك الليلة وقد مضى هذا في (الأعراف) و(طه) مستوفى، يقال: غاظني كذا وأغاظني والغيظ: الغضب ومنه التغيظ والاغتياظ أي: غاظونا بخروجهم من غير إذن ﴿وإنا لجميع حذرون﴾ أي مجتمع مستعد أخذنا حذرنا وأسلحتنا وقرئ ﴿حَٰذِرُونَ﴾ أي: فرقون أي: فرقون خائفون، قال الجوهري: وقرئ: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ و(حَذِرون)، و(حَذُرون) بضم الذال، حكاه الأخفش، ومعنى حاذرون متأهبون، ومعنى و(حذرون) خائفون.

فماذا كان؟ ماذا كان من أمر فرعون لما جمع الجموع لملاحقة موسى وهارون وبني إسرائيل ومن آمن بالله واليوم الآخر؟!!

قال تعالى في شأن فرعون وجنده: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾.

المعنى - والله أعلم - فأخرجنا آل فرعون من الحدائق والبساتين وعيون الماء التي كانوا يستمتعون بها ومن المنازل الحسان التي كانوا يسكنونها والمنابر التي كانوا يرتقون عليها ويصعدون عليها، وكذا من كنوز الذهب والفضة التي كانوا يكتنزونها، وهكذا فكما أخرجناهم، أورثنا تلك الجنات والعيون والكنوز والمقام الكريم بني إسرائيل، ثم بشيء من التفصيل فيخرج آل فرعون لملاحقة موسى وبني إسرائيل في الصباح عند شروق الشمس، وقد قيل[1] إنهم تأخروا

(١) وليس على ذلك دليل ثابت فيما علمت.

عن ملاحقتهم لكون القمر انخسف في تلك الليلة وأظلم الجو، وقيل: إنه تأخر عن ملاحقتهم حتى جمع الجموع. فالله أعلم.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: فأخرجنا فرعون وقومه من بساتين وعيون ماء، وكنوز ذهب وفضة، ومقام كريم. قيل: إن ذلك المقام الكريم: المنابر. وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ يقول: هكذا أخرجناهم من ذلك كما وصفت لكم في هذه الآية والتي قبلها. ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا﴾ يقول: وأورثنا تلك الجنات التي أخرجناهم منها والعيون والكنوز والمقام الكريم عنهم بهلاكهم بني إسرائيل. وقوله: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ فأتبع فرعون وأصحابه بني إسرائيل مشرقين حين أشرقت الشمس، وقيل: حين أصبحوا.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ أي: فخرجوا من هذا النعيم إلى الجحيم، وتركوا تلك المنازل العالية والبساتين والأنهار والأموال والأرزاق والملك والجاه الوافر في الدنيا.

﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف:١٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القصص:٥، ٦].

ذكر غير واحد من المفسرين: أن فرعون خرج في جحفل عظيم وجمع كبير، هو عبارة عن مملكة الديار المصرية في زمانه، أولي الحل والعقد والدول، من

الأمراء والوزراء والكبراء والرؤساء والجنود، فأمَّا ما ذكره غير واحد من الإسرائيليات، من أنه خرج في ألف ألف وستمائة ألف فارس، منها مائة ألف على خيل دُهْم، وقال كعب الأحبار: فيهم ثمانمائة ألف حصان أدهم، ففي ذلك نظر. والظاهر أنه من مجازفات بني إسرائيل، والله سبحانه وتعالى أعلم. والذي أخبر به هو النافع، ولم يعين عدتهم؛ إذ لا فائدة تحته، إلا أنهم خرجوا بأجمعهم.

﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾ أي: وصلوا إليهم عند شروق الشمس، وهو طلوعها.

قلت (مصطفى): فحقًّا إنها مطاردةٌ مثيرةٌ!!

قومٌ يمنعون في الفرار، وآخرون يتابعونهم أشد المتابعة! وما يدرى هؤلاء ولا أولئك ما الله صانع بهم!!!

ويبدو أن موكب فرعون كان أسرع فمعهم من الخيول والفرسان والسلاح ما يمكنهم من سرعة اللحاق بموسى عليه السلام ومن معه فتراءى الجمعان –رأى كل فريق الفريق الآخر رأى الإسرائيليون فرعون وجنوده فازدادوا خوفًا وذعرًا إلا من ثبته الله منهم!!

ورأى فرعون وجنوده بني إسرائيل فظنوا أنهم سيدركونهم ويقتلونهم!!

ولا يدرى أحدٌ منهم ما الله صانع به.

اشتداد الكرب

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾.

والمعنى – والله تعالى أعلم – واستمرت المطاردة والملاحقة من فرعون

وجنوده بما معهم من أنواع السلاح والعتاد، وكان جيشًا عظيمًا هائلًا فاستمرت المطاردة والملاحقة إلى أن اقترب موسى عليه السلام من البحر، واقترب فرعون بجموعه وجنوده من موسى عليه السلام، ورأى كل فريق الآخر فعندها قال أصحاب موسى لموسى عليه السلام: قد أدركنا القوم، قد أدركونا لا محالة، وليس أمامنا إلا البحر، فالبحر أمامنا والعدو يلاحقنا، ها هو قد أدركنا، وها نحن سنقتل لا محالة.

ثبات نبي الله موسى عليه السلام

فقال موسى عليه السلام نافيًا هذا الظن: كلا، لن نُدرك فإن ربي معي سيوفقني لسلوك طريق السلامة والنجاة.

انفلاق البحر!!!

فعندها أوحى الله عزوجل إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر، فضرب بعصاه البحر فانفلق البحر فلقتين، كل فلقة منه كالجبل العظيم، وسبحان الله أصبح البحر كأنه جبلين عظيمين (من الماء) بينهما ممرٌ يابس، سبحان الله، ماء مرتفع جدًّا عن كل جانب وبينهما أرض يابسة، فسلك موسى عليه السلام ومن معه هذا الطريق اليبس والأمواج كالجبال تحيط به ولا تسقط عليه، وسبحان الله إنها معجزةٌ عظيمة، ويُقال لِمَ لم يتفطن فرعون لهذا، ولم يتعظ؟! وجواب ذلك أن الله أعمى بصيرته عن هذه المعجزة، وقرَّبه الله وقرَّب من معه إلى هذا الطريق اليبس واقتحموا اليبس، وساروا فيه فعندها، وقد سلَّم الله عزوجل موسى ومن معه أطبق الجبلان (جبلان من ماء) على فرعون وجنده وهم يسيرون على اليبس الذي سار عليه موسى عليه السلام، فسبحان من قربهم إلى حتفهم وسبحان من جرأهم على اقتحام اليبس بعد موسى ومن معه!! فحقًّا إن الأمور تجري بمقادير، إن الله سلَّم موسى عليه السلام، وتجاوزوا البحر.

هلاك الطاغية وجنوده

أما فرعون فانطبق عليه البحر وعلى من معه فأغرقه الله ومن معه جميعًا.

عندها صاح فرعون، وقبيل نهايته: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يونس: ٩٠]، ولكن لم يكن إيمانه بنافع له، قال تعالى: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس: ٩١].

فحقًّا إن في إهلاك فرعون ومن معه بهذه الطريقة وعلى هذا النحو لآية، ومعجزة ودلالة على قدرة الله عَزَّوَجَلَّ ووحدانيته لآية ودليلًا على أن الله عَزَّوَجَلَّ يُنجي أولياءه وينتقم من أعدائه، ولكن من يتعظ، ومن يعتبر؟!! إن الأكثرين لا يتعظون - لا يعتبرون - لا يؤمنون، وإن ربك لهو الغالب على أمره القوي الذي لا يُردُّ له أمرٌ، ولا يحول بينه وبين ما يريد حائلٌ، الرحيم بعباده المؤمنين.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: فلما تناظر الجمعان: جمع موسى وهم بنو إسرائيل، وجمع فرعون وهم القبط ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ أي: إنا لملحقون، الآن يلحقنا فرعون وجنوده فيقتلوننا، وذكر أنهم قالوا ذلك لموسى، تشاؤمًا بموسى.

وأورد بإسناد صحيح عن سليمان بن طرخان قال: قلت لعبد الرحمن: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ قال: تشاءموا بموسى، وقالوا: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ [الأعراف: ١٢٩].

وعن السدي: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾ فنظرت بنو إسرائيل إلى فرعون قد رمقهم قالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾. ﴿قَالُوٓاْ﴾ يا موسى ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ [الأعراف: ١٢٩] اليوم يدركنا فرعون فيقتلنا، إنا لمدركون؛ البحر

بين أيدينا، وفرعون من خلفنا.

وقال الطبري:

وقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ قال موسى لقومه: ليس الأمر كما ذكرتم، كلا لن تدركوا إن معي ربي سيهدين، يقول: سيهدين لطريق أنجو فيه من فرعون وقومه.

وقال الطبري أيضًا:

وقوله: ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ يقول تعالى ذكره: فكان كل طائفة من البحر لما ضربه موسى كالجبل العظيم. وذكر أنه انفلق اثنتي عشرة فلقة على عدد الأسباط، لكل سبط منهم فرق.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يعني بقوله تعالى ذكره: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ﴾: وقربنا هنالك آل فرعون من البحر، وقدمناهم إليه، ومنه قوله: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠] بمعنى: قربت وأدنيت؛ ومنه قول العجاج:

طي الليالي زلفا فزلفا ... سماوة الهلال حتى احقوقفا

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ يقول تعالى ذكره: وأنجينا موسى مما أتبعنا به فرعون وقومه من الغرق في البحر ومن مع موسى من بني إسرائيل أجمعين. وقوله: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ﴾ يقول: ثم أغرقنا فرعون وقومه من القبط في البحر بعد أن أنجينا موسى منه ومن معه.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ يقول تعالى ذكره: إن فيما فعلت بفرعون ومن معه تغريقي إياهم في البحر إذ كذبوا رسولي موسى، وخالفوا أمري بعد الإعذار إليهم، والإنذار لدلالة بينة يا محمد لقومك من قريش على أن ذلك سنتي فيمن سلك سبيلهم من تكذيب رسلي، وعظة لهم وعبرة أن ادكروا واعتبروا أن يفعلوا

مثل فعلهم من تكذيبك مع البرهان والآيات التي قد أتيتهم، فيحل بهم من العقوبة نظير ما حل بهم، ولك آية في فعلي بموسى، وتنجيتي إياه بعد طول علاجه فرعون وقومه منه، وإظهاري إياه وتوريثه وقومه دورهم وأرضهم وأموالهم، على أني سالك فيك سبيله، إن أنت صبرت صبره، وقمت من تبليغ الرسالة إلى من أرسلتك إليه قيامه، ومظهرك على مكذبيك، ومعليك عليهم.

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾﴾ يقول: وما كان أكثر قومك يا محمد مؤمنين بما أتاك الله من الحق المبين، فسابق في علمي أنهم لا يؤمنون.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في انتقامه ممن كفر به وكذب رسله من أعدائه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بمن أنجى من رسله، وأتباعهم من الغرق والعذاب الذي عذب به الكفرة.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾ أي: رأى كل من الفريقين صاحبه، فعند ذلك ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾، وذلك أنه انتهى بهم السير إلى سيف البحر، وهو بحر القلزم، فصار أمامهم البحر، وفرعون قد أدركهم بجنوده، فلهذا قالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ أي: لا يصل إليكم شيء مما تحذرون، فإن الله، سبحانه، هو الذي أمرني أن أسير هاهنا بكم، وهو لا يخلف الميعاد.

وكان هارون عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، في المقدمة، ومعه يوشع بن نون، ومؤمن آل فرعون وموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، في الساقة، وقد ذكر غير واحد من المفسرين: أنهم وقفوا لا يدرون ما يصنعون، وجعل يوشع بن نون، أو مؤمن آل فرعون يقول لموسى، عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: يا نبي الله، هاهنا أمرك الله أن تسير؟ فيقول: نعم، واقترب فرعون وجنوده، ولم يبق إلا القليل، فعند ذلك أمر الله نبيه موسى أن يضرب البحر بعصاه، فضربه، وقال: انفلق بإذن الله.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ أي: في هذه القصة وما فيها من العجائب والنصر والتأييد لعباد الله المؤمنين؛ لدلالة وحجة قاطعة وحكمة بالغة ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ تقدم تفسيره.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ﴾ أي: تقابل الجمعان بحيث يرى كل فريق صاحبه وهو تفاعل من الرؤية ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ أي: قرب منا العدو ولا طاقة لنا به.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ لما لحق فرعون بجمعه جمع موسى وقرب منهم ورأت بنو إسرائيل العدو القوي والبحر أمامهم ساءت ظنونهم وقالوا لموسى على جهة التوبيخ والجفاء: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ فرد عليهم قولهم وزجرهم وذكرهم وعد الله سبحانه له بالهداية والظفر ﴿كَلَّا﴾ أي لم يدركوكم ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ أي: بالنصر على العدو ﴿سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ أي: سيدلني على طريق النجاة فلما عظم البلاء على بني إسرائيل ورأوا من الجيوش ما لا طاقة لهم بها أمر الله تعالى موسى أن يضرب البحر بعصاه وذلك أنه عَزَّ وَجَلَّ أراد أن تكون الآية متصلة بموسى ومتعلقة بفعل يفعله وإلا فضرب العصا ليس بفارق للبحر ولا معين على ذلك بذاته إلا بما اقترن به من قدرة الله تعالى واختراعه وقد مضى في (البقرة) قصة هذا البحر ولما انفلق صار فيه اثنا عشر طريقًا على عدد أسباط بني إسرائيل ووقف الماء بينها كالطود العظيم أي: الجبل العظيم والطود: الجبل ومنه قول امرئ القيس:

فبينا المرء في الأحياء طود   رماه الناس عن كثب فمالا

وقال الأسود بن يعفر:

حلوا بأنقرة يسيل عليهم   ماء الفرات يجيء من أطواد

جمع: طود أي: جبل فصار لموسى وأصحابه طريقًا في البحر يبسًا فلما خرج أصحاب موسى وتكامل آخر أصحاب فرعون على ما تقدم في (يونس) انصب عليهم وغرق فرعون فقال بعض أصحاب موسى: ما غرق فرعون فنبذ على ساحل البحر حتى نظروا إليه.

وقال:

قوله تعالى: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ أي: قربناهم إلى البحر يعني فرعون وقومه قاله ابن عباس وغيره قال الشاعر:

وكل يوم مضى أو ليلة سلفت فيها النفوس إلى الآجال تزدلف

قلت (مصطفى): فحقًّا ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ [الشعراء: ١٠٣] لدلالة على قدرة الله عَزَّوَجَلَّ ودلالة على وحدانيته.

ولكن ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

فالآيات لا تنفع إلا من أراد الله له أن ينتفع وحقًّا ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ الغالب القاهر الذي ينفذ أمره في خلقه، وفي ذات الوقت رحيم بأهل الإيمان إذ سلمهم وحفظهم ونجَّاهم ممن يريدون بهم الشر والمكروه.

حقًّا إن الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

الآيات الواردة في هلاك فرعون ونجاة بني إسرائيل من سورة الدخان

أولاً: ذكر الآيات المباركات:

﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ

إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرۡعَوۡنَۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُم مِّنَ ٱلۡأٓيَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الدخان: ٢٢-٣٣].

ثانيًا: معاني مفردات هذه الآيات:

الكلمة	معناها
﴿فَأَسۡرِ بِعِبَادِي﴾	فاخرج بهم ليلًا (اخرج ببني إسرائيل) ليلًا
﴿مُّتَّبَعُونَ﴾	سيتبعكم عدوكم
﴿رَهۡوًا﴾	ساكنًا - سهلًا - على حالته وهيئته
﴿جَنَّٰتٍ﴾	حدائق وبساتين
﴿وَعُيُونٍ﴾	منابع للماء
﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾	مقامات الملوك والأمراء، والمنابر - وصدور المجالس - المساكن الأنيقة والأماكن الحسنة
﴿فَٰكِهِينَ﴾	مُنعمين - متفكهين - ناعمين
﴿مُنظَرِينَ﴾	مُمهلين - مؤخرين عن العقوبة
﴿ٱلۡمُهِينِ﴾	المُذل المُخزي
﴿ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾	المتجاوزين للحد في العصيان

ثالثًا: المعنى الإجمالي للآيات:

وقوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٌ مُّجۡرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾.

معناه والله أعلم، أن موسى عليه السلام لما قال لقومه أدُّوا إلي عباد الله، وقال لهم: ﴿وَأَن لَّا تَعۡلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ﴾، وقال لهم: ﴿وَإِن لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ لِي فَٱعۡتَزِلُونِ﴾، رفضوا كل هذا، وعاندوا غاية العناد وتمادوا غاية التمادي في الغيِّ والضلال والتكذيب والأذى، فدعا عليهم قائلًا: رب إن هؤلاء قوم مجرمون، مجترمون للآثام والجنايات فضلًا

عن الكفر والتكذيب والتعالي على الله عَزَّوَجَلَّ، فأوحى الله إليه أن أسر بعبادي ليلًا، أي: اخرج أنت ومن معك من بني إسرائيل من بلاد مصر ليلًا فإن فرعون وجنده يعدون العدة لكم وسيتبعونكم لقتلكم ولتشريدكم، فإذا وصلت أنت ومن معك إلى البحر فاضربه بعصاك فسينفلق ويكون بعده طريق فاسلكه وامش فيه، فإذا جاوزته فاتركه ساكنًا على الحالة التي دخلت عليه فيها، فإن الله عَزَّوَجَلَّ سيغرق فرعون وجنده.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فلما طال مقامه بين أظهرهم، وأقام حجج الله عليهم، كل ذلك وما زادهم ذلك إلا كفرًا وعنادًا، دعا ربه عليهم دعوة نفذت فيهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا﴾ [يونس: ٨٨، ٨٩]. وهكذا قال هاهنا: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ فعند ذلك أمره الله تعالى أن يخرج ببني إسرائيل من بين أظهرهم من غير أمر فرعون ومشاورته واستئذانه؛ ولهذا قال: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ كما قال: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه: ٧٧].

وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: فدعا موسى ربه إذ كذبوه ولم يؤمنوا به، ولم يؤد إليه عباد الله، وهموا بقتله بأن هؤلاء -يعني فرعون- وقومه ﴿قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ يعني: أنهم مشركون بالله كافرون.

وقوله: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى﴾ وفي الكلام محذوف استغني بدلالة ما ذكر عليه منه، وهو: فأجابه ربه بأن قال له: فأسر إذ كان الأمر كذلك بعبادي، وهم بنو إسرائيل، وإنما معنى الكلام: فأسر بعبادي الذين صدقوك وآمنوا بك، واتبعوك

دون الذين كذبوك منهم، وأبوا قبول ما جئتهم به من النصيحة منك، وكان الذين كانوا بهذه الصفة يومئذٍ بني إسرائيل. وقال: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا﴾ لأن معنى ذلك: سر بهم بليل قبل الصباح.

وقوله: ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ يقول: إن فرعون وقومه من القبط متبعوكم إذا شخصتم عن بلدهم وأرضهم في آثاركم.

موسى عليه السلام يؤمر بأن يترك البحر ساكنًا

قلت (مصطفى): وقوله تعالى: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

فمعناه: والله تعالى أعلم، فإذا جاوزت يا نبي الله أنت ومن معك البحر فاتركوه على حالته حين مررتم عليه يابسًا فإن فرعون ومن معه قد حكم الله عليهم بالغرق وقضى به عليهم.

قال الطبري رحمه الله:

وقوله: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾ يقول: وإذا قطعت البحر أنت وأصحابك، فاتركه ساكنًا على حاله التي كان عليها حين دخلته.

وقيل: إن الله تعالى ذكره قال لموسى هذا القول بعد ما قطع البحر ببني إسرائيل فإذ كان ذلك كذلك، ففي الكلام محذوف، وهو: فسرى موسى بعبادي ليلًا وقطع بهم البحر، فقلنا له بعد ما قطعه، وأراد رد البحر إلى هيئته التي كان عليها قبل انفلاقه: اتركه رهوًا.

وأورد بإسناد يصح عن قتادة قوله: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ حتى بلغ ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾ قال: لما خرج آخر بني إسرائيل أراد نبي الله ﷺ أن يضرب البحر بعصاه، حتى يعود كما كان مخافة آل فرعون أن يدركوهم، فقيل له: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله هاهنا: ﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ ٢٤﴾ وذلك أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لما جاوز هو وبنو إسرائيل البحر، أراد موسى أن يضربه بعصاه حتى يعود كما كان، ليصير حائلًا بينهم وبين فرعون، فلا يصل إليهم.

فأمره الله أن يتركه على حاله ساكنًا، وبشره بأنهم جند مغرقون فيه، وأنه لا يخاف دركًا ولا يخشى.

قال ابن عباس: ﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ﴾ كهيئته وامضِهْ.

وقال مجاهد: ﴿رَهۡوًاۖ﴾ طريقًا يبسًا كهيئته، يقول: لا تأمره يرجع، اتركه حتى يرجع آخرهم.

وراثة بني إسرائيل ديار فرعون وجنوده

قلت (مصطفى): و قوله تعالى: ﴿كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ٢٥ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ٢٦ وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ٢٧ كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ٢٨﴾.

فمعناه، والله تعالى أعلم، كم خلَّف هؤلاء الأقوام الذين أغرقهم الله عَزَّوَجَلَّ، وهم فرعون وقومه - كم خلَّفوا بعدهم من حدائق وبساتين، وعيون تتفجر منها الأنهار، وكذا كم تركوا من الزروع والثمار وكريم المنازل والمجالس، ونعمٍ عظيمة كانوا منعمين فيها، فهكذا أنعمنا عليهم، وهكذا أورثناها قومًا بعدهم وهم بنو إسرائيل.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: كم ترك فرعون وقومه من القبط بعد مهلكهم وتغريق الله إياهم من بساتين وأشجار، وهي الجنات، وعيون، يعني: ومنابع ما كان ينفجر في جنانهم وزروع قائمة في مزارعهم ﴿وَمَقَامٖ كَرِيمٖ﴾ يقول: وموضع كانوا يقومونه شريف كريم.

ثم اختلف أهل التأويل في معنى وصف الله ذلك المقام بالكرم، فقال بعضهم: وصفه بذلك لشرفه، وذلك أنه مقام الملوك والأمراء، قالوا: وإنما أريد به المنابر.

وقال: وقال آخرون: وصف ذلك المقام بالكرم لحسنه وبهجته.

وقال: وقوله: ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ يقول تعالى ذكره: وأخرجوا من نعمة كانوا فيها فاكهين متفكهين ناعمين.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ يقول تعالى ذكره: هكذا كما وصفت لكم أيها الناس فعلنا بهؤلاء الذين ذكرت لكم أمرهم، الذين كذبوا رسولنا موسى ﷺ.

وقوله: ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ يقول تعالى ذكره: وأورثنا جناتهم وعيونهم وزروعهم ومقاماتهم وما كانوا فيه من النعمة عنهم قومًا آخرين بعد مهلكهم، وقيل: عني بالقوم الآخرين بنو إسرائيل.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

ثم قال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ﴾ وهي البساتين ﴿وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ﴾ والمراد بها الأنهار والآبار، ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ وهي المساكن الكريمة الأنيقة والأماكن الحسنة.

وقال: ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ أي: عيشة كانوا يتفكهون فيها فيأكلون ما شاؤوا ويلبسون ما أحبوا مع الأموال والجاهات والحكم في البلاد، فسلبوا ذلك جميعه في صبيحة واحدة، وفارقوا الدنيا وصاروا إلى جهنم وبئس المصير، واستولى على البلاد المصرية وتلك الحواصل الفرعونية والممالك القبطية بنو إسرائيل، كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩]، وقال في موضع آخر: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا

﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧]

وقال هاهنا: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ وهم بنو إسرائيل، كما تقدم.

قلت (مصطفى) ويطرح هنا سؤال: هل تبكي السماء والأرض على أحدٍ؟

وجوابه: نعم تبكي بدليل المفهوم المخالف من قوله: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾، وقد أخرج الطبري بسند صحيح إلى سعيد بن جبير قال: أتى ابن عباس رجل، فقال: يا أبا عباس أرأيت قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ فهل تبكي السماء والأرض على أحد؟ قال: نعم إنه ليس أحد من الخلائق إلا له باب في السماء منه ينزل رزقه، وفيه يصعد عمله، فإذا مات المؤمن فأغلق بابه من السماء الذي كان يصعد فيه عمله، وينزل منه رزقه، بكى عليه؛ وإذا فقده مصلاه من الأرض التي كان يصلي فيها، ويذكر الله فيها بكت عليه، وإن قوم فرعون لم يكن لهم في الأرض آثار صالحة، ولم يكن يصعد إلى السماء منهم خير، قال: فلم تبك عليهم السماء والأرض.

وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقيل: إنما قيل: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ لأن المؤمن إذا مات، بكت عليه السماء والأرض أربعين صباحًا، ولم تبكيا على فرعون وقومه؛ لأنه لم يكن لهم عمل يصعد إلى الله صالح فتبكي عليهم السماء، ولا مسجد في الأرض فتبكي عليهم الأرض.

وأورد ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ أثرًا أخرجه ابن أبي حاتم بسنده إلى عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: وقد سأله رجل هل تبكي السماء والأرض على أحد؟ فقال له: لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد قبلك، إنه ليس عبد إلا له مصلى في الأرض، ومصعد عمله من السماء. وإن آل فرعون لم يكن لهم عمل صالح في الأرض، ولا عمل يصعد في السماء، ثم قرأ علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾.

قلت (مصطفى): وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾

مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾.

معناه -والله تعالى أعلم- أن الله سبحانه وتعالى يُظهر فضله الذي تفضَّل به على بني إسرائيل بإنجائهم من العذاب المُذل المخزي الذي كان يمارسه معهم فرعون وقومه، فقد كان يذبح الأبناء ويستحيي النساء، ولقد كان متجاوزًا للحد في الظلم والطغيان.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ يقول تعالى ذكره: ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب من فرعون، فقوله: ﴿ مِن فِرْعَوْنَ ۚ ﴾ مكررة على قوله: ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ مبدلة من الأولى. ويعني بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ إنه كان جبارًا مستعليًا مستكبرًا على ربه، ﴿مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ يعني: من المتجاوزين ما ليس لهم تجاوزه. وإنما يعني جلَّ ثناؤه أنه كان ذا اعتداء في كفره، واستكبار على ربه جلَّ ثناؤه.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ يمتن عليهم تعالى بذلك، حيث أنقذهم مما كانوا فيه من إهانة فرعون وإذلاله لهم، وتسخيره إياهم في الأعمال المهينة الشاقة.

وقوله: ﴿ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا ﴾ أي: مستكبرًا جبارًا عنيدًا، وكقوله: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [القصص: ٤].

وقوله: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [المؤمنون: ٤٦]، سِرفًا في أمره، سخيف الرأي على نفسه.

هل أمة محمد أفضل أم بنو إسرائيل؟

سؤال: معلوم أن الله عَزَّوَجَلَّ قال في شأن أمة محمد ﷺ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] فكيف التوفيق بين ذلك وبين قوله تعالى في شأن بني إسرائيل ولقد اخترناهم على علم على العالمين.

وجوابه، وبالله التوفيق، وهو سبحانه أعلم أن المراد بقوله: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ معناه على العالمين في زمانهم.

وبهذا قال جماهير العلماء.

قال الطبري:

يقول تعالى ذكره: ولقد اخترنا بني إسرائيل على علم منا بهم على عالمي أهل زمانهم يومئذ، وذلك زمان موسى صلوات الله وسلامه عليه.

وأورد عن قتادة بإسنادٍ صحيح قال: اختيروا على أهل زمانهم ذلك، ولكل زمان عالم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قال مجاهد ﴿ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على من هم بين ظهريه.

شيءٌ من قصة هلاك فرعون من سورة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ

قال الله تعالى: ﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ [يونس: ٩٠-٩٢]

معاني مفردات الآيات:

الكلمة	معناها
﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾	جعلناهم يجتازون البحر ويمرون آمنين مطمئنين.
﴿فَأَتْبَعَهُمْ﴾	فتبعهم.
﴿بَغْيًا﴾	ظُلمًا.
﴿وَعَدْوًا﴾	اعتداءً.
﴿أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾	أحاط به الماء وتيقن من الغرق.
﴿ٱلْمُسْلِمِينَ﴾	المستسلمين الخاضعين.
﴿ءَايَةً﴾	دلالة وعلامة (على وحدانية الله وقدرته).
﴿لَغَٰفِلُونَ﴾	لمعرضون.

المعنى الإجمالي للآيات المباركات:

المعنى – والله تعالى أعلم-: ومكَّنا بني إسرائيل من تجاوز البحر والمرور به والانتهاء منه فتبعهم فرعون وجنوده ظلمًا وتعديًا، وقيل ظلمًا وجريًا ومتابعةً لموسى عليه السلام حتى إذا توسط فرعون البحر، وكان يبسًا التئم البحر ثانيةً على فرعون ومن معه.

فرعون يعلن إيمانه حيث لا ينفع الإيمان

حتى إذا أيقن فرعون أنه هالك وأن الماء محيط به من كل جانب، وأيقن بالغرق قال: صدقت، بالذي صدقت به بنو إسرائيل من توحيد الله عز وجل ونبوة موسى وهارون عليهما السلام وأنا من المستسلمين الخاضعين لأمر الله عز وجل. فقيل له: الآن آمنت، وقد عصيت في هذا من قبل وكذبت وكنت من المفسدين في الأرض، وقد قيل إن قائل ذلك هو الله عز وجل، وقيل إنه جبريل عليه السلام، وثَمَّ أقوالٌ أخر، هذا ولما كان هناك من تشكك من الإسرائيليين في هلاك فرعون وغرقه،

وكذا فقد كانت هنالك بقايا من آل فرعون بمصر لم يخرجوا معه، وهؤلاء وأولئك كلاهما لم يوقن بموت فرعون وإغراقه وإهلاكه طرحه الله عَزَّوَجَلَّ على البرِّ، كما قال: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ أي: فاليوم نلقيك على نجوة من الأرض كي يراك الناس وأنت ميت قد أهلكك الله فيتعظون بك ويعتبرون بهلاكك، وإن كان كثيرون من الناس عن آيات الله لمعرضون غير ملتفتين لها، ولا منتفعين بها.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وقطعنا ببني إسرائيل البحر حتى جاوزوه ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ ﴾، يقول: فتبعهم فرعون ﴿ وَجُنُودُهُۥ ﴾.

﴿ بَغْيًا ﴾ على موسى وهارون ومن معهما من قومهما من بني إسرائيل ﴿ وَعَدْوًا ﴾، يقول: واعتداء عليهم.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ ﴾ يقول: حتى إذا أحاط به الغرق، وفي الكلام متروك، قد ترك ذكره لدلالة ما ظهر من الكلام عليه، وذلك: ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ﴾ فيه فغرقناه ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ ﴾.

وقوله: ﴿ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾، يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل فرعون حين أشفى على الغرق، وأيقن بالهلكة: ﴿ ءَامَنتُ ﴾، يقول: أقررت، ﴿ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾.

يقول تعالى ذكره، معرِّفًا فرعون قبح صَنيعه أيّام حياته وإساءته إلى نفسه أيام صحته، بتماديه في طغيانه، ومعصيته ربه، حين فزع إليه في حال حلول سَخطه به ونزول عقابه، مستجيرًا به من عذابه الواقع به، لما ناداه وقد علته أمواج البحر، وغشيته كرَبُ الموت: ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ له، المنقادين بالذلة له، المعترفين بالعبودية الآن تقرُّ لله

بالعبودية، وتستسلم له بالذلة، وتخلص له الألوهة، وقد عصيته قبل نزول نقمته بك، فأسخطته على نفسك، وكنت من المفسدين في الأرض، الصادِّين عن سبيله؟ فهلا وأنت في مَهَلٍ، وباب التوبة لك منفتح، أقررت بما أنت به الآن مقرٌّ؟

ويقول تعالى ذكره لفرعون: اليوم نجعلك على نَجْوةٍ من الأرض ببدنك، ينظر إليك هالكًا من كذّب بهلاكك ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾، يقول: لمن بعدك من الناس عبرة يعتبرون بك، فينزجرون عن معصية الله، والكفر به والسعي في أرضه بالفساد.

و«النجوة»، الموضع المرتفع على ما حوله من الأرض.

وقوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾، يقول تعالى ذكره: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا﴾، يعني: عن حججنا وأدلتنا على أن العبادة والألوهة لنا خالصةٌ ﴿لَغَٰفِلُونَ﴾، يقول: لساهون، لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها.

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

فإن قال قائل: وما وجه قوله: ﴿بِبَدَنِكَ﴾؟ وهل يجوز أن ينجيه بغير بدنه، فيحتاج الكلام إلى أن يقال فيه ﴿بِبَدَنِكَ﴾؟

قيل: كان جائزًا أن ينجيه بهيئته حيًّا كما دخل البحر. فلما كان جائزًا ذلك قيل: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾، ليعلم أنه ينجيه بالبدن بغير روح، ولكن ميّتًا.

وأخرجه الطبري بسندٍ صحيح عن أبي السليل، عن قيس بن عباد، قال: - وكان من أكثر الناس- أو: أحدث الناس - عن بني إسرائيل، قال: فحدثنا أن أول جنود فرعون لما انتهى إلى البحر، هابت الخيل اللهب؛ قال: ومثل لحصان منها فرس وَدِيق، فوجد ريحها -أحسبه أنا قال: -فانسلَّ، فاتبعه. قال: فلما تتامّ آخر جنود فرعون في البحر، وخرج آخر بني إسرائيل، أمر البحر فانطبق عليهم، فقالت بنو إسرائيل: ما مات فرعون وما كان ليموت أبدًا، فسمع الله تكذيبهم

نبيه، قال: فرمى به على الساحل، كأنه ثور أحمر يتراءاه بنو إسرائيل.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال الله تعالى في جواب فرعون حين قال ما قال: ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ ﴾ أي: أهذا الوقت تقول، وقد عصيت الله قبل هذا فيما بينك وبينه؟ ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ أي: في الأرض الذين أضلوا الناس، ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [القصص: ٤١].

وهذا الذي حكى الله تعالى عن فرعون من قوله هذا في حاله ذاك من أسرار الغيب التي أعلم الله بها رسوله ﷺ.

وقوله: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ قال ابن عباس وغيره من السلف: إن بعض بني إسرائيل شكُّوا في موت فرعون، فأمر الله تعالى البحر أن يلقيه بجسده سويًّا بلا روح، وعليه درعه المعروفة على نجوة من الأرض وهو المكان المرتفع، ليتحققوا موته وهلاكه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ ﴾ أي: نرفعك على نَشز من الأرض، ﴿ بِبَدَنِكَ ﴾ قال مجاهد: بجسدك. وقال الحسن: بجسم لا روح فيه. وقال عبد الله بن شداد: سويًّا صحيحًا، أي: لم يتمزق ليتحققوه ويعرفوه. وقال أبو صخر: بدرعك.

وكل هذه الأقوال لا منافاة بينها، كما تقدم، والله أعلم.

وقوله: ﴿ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ أي: لتكون لبني إسرائيل دليلًا على موتك وهلاكك، وأن الله هو القادر الذي ناصية كل دابة بيده، وأنه لا يقوم لغضبه شيء؛ ولهذا قرأ بعض السلف: (**لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ**) أي: لا يتعظون بها، ولا يعتبرون بها.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ أي من الموحدين المستسلمين بالانقياد والطاعة

قوله تعالى: ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾.

قيل: هو من قول الله تعالى. وقيل: هو من قول جبريل. وقيل: ميكائيل، صلوات الله عليهما، أو غيرهما من الملائكة له صلوات الله عليهم. وقيل: هو من قول فرعون في نفسه، ولم يكن ثم قول اللسان بل وقع ذلك في قلبه فقال في نفسه ما قال: حيث لم تنفعه الندامة ؛ ونظيره. ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ ﴾ [الإنسان: ٩] أثنى عليهم الرب بما في ضميرهم لا أنهم قالوا ذلك بلفظهم، والكلام الحقيقي كلام القلب.

قوله تعالى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾ أي نلقيك على نجوة من الأرض. وذلك أن بني إسرائيل لم يصدقوا أن فرعون غرق، وقالوا: هو أعظم شأنًا من ذلك، فألقاه الله على نجوة من الأرض، أي مكان مرتفع من البحر حتى شاهدوه قال أوس بن حجر يصف مطرًا:

فمن بعقوته كمن بنجوته ... والمستكن كمن يمشي بقرواح

قوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ أي لبني إسرائيل ولمن بقي من قوم فرعون ممن لم يدركه الغرق ولم ينته إليه هذا الخبر. ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾ أي معرضون عن تأمل آياتنا والتفكر فيها.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير:

وفي سبب إخراجه من البحر بعد غرقه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن موسى وأصحابه لما خرجوا، قال من بقي في المدائن من قوم فرعون: ما أُغرق فرعون، ولكنه هو وأصحابه يتصيدون في جزائر البحر، فأوحى الله إلى البحر أن الفظ فرعون عريانًا، فكانت نجاةَ عِبرةٍ، وأوحى الله تعالى إلى البحر: أن الفظ ما فيك، فلفظهم البحر بالساحل، ولم يكن يلفظ غريقًا، فصار لا يقبل غريقًا إلى يوم القيامة، رواه الضحاك عن ابن عباس.

والثاني: أن أصحاب موسى قالوا: إنا نخاف أن يكون فرعون ما غرق، ولا

نؤمن بهلاكه، فدعا موسى عليه السلام ربه، فأخرجه حتى أيقنوا بهلاكه، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس، وإلى نحوه ذهب قيس بن عُبَاد، وعبد الله بن شداد، والسدي، ومقاتل. وقال السدي: لما قال بنو إسرائيل: لم يغرق فرعون، دعا موسى، فخرج فرعون في ستمائة ألف وعشرين ألفًا عليهم الحديد، فأخذته بنو إسرائيل يمثِّلون به. وذكر غيره أنه إنما أخرج من البحر وحده دون أصحابه. وقال ابن جريج: كذَّب بعض بني إسرائيل بغرقه، فرمى به البحر على ساحل البحر حتى رآه بنو إسرائيل قُصَيِّرًا أحمر كأنه ثور. وقال أبو سليمان: عرفه بنو إسرائيل بدرع كانت له من لؤلؤ لم يكن لأحد مثلها. فأما وجهه فقد غيَّره سخط الله تعالى.

والثالث: أنه كان يدَّعي أنه ربٌّ، وكان يعبده قوم، فبيَّن الله تعالى أمره، فأغرقه وأصحابه، ثم أخرجه من بينهم، قاله الزجاج. وفي قوله: ﴿بِبَدَنِكَ﴾ أربعة أقوال:

أحدها: بجسدك من غير روح، قاله مجاهد. وذِكر البدن دليل على عدم الروح.

والثاني: بدرعك، قاله أبو صخر. وقد ذكرنا أنه كانت له درع من لؤلؤ، وقيل: من ذهب، فعُرِف بدرعه.

والثالث: نلقيك عريانًا، قاله الزجاج. **والرابع**: ننجِّيك وحدك، قاله ابن قتيبة.

وقال ابن الجوزي في زاد المسير أيضًا:

وفي قوله: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ ثلاثة أقوال:

أحدها: لتكون لمن بعدك في النكال آية لئلا يقولوا مثل مقالتك، فإنك لو كنت إلهًا ما غرقت، قاله أبو صالح عن ابن عباس. قال أبو عبيدة: «خلفك» بمعنى بعدك، والآية: العلامة.

والثاني: لتكون لبني إسرائيل آية، قاله السدي.

والثالث: لمن تخلّف من قومه؛ لأنهم أنكروا غرقه على ما ذكرنا في أول

الآية، فخرج في معنى الآية قولان:

أحدهما: عبرة للناس.

والثاني: علامة تدل على غرقه. وقال الزجاج: الآية أنه كان يدَّعي أنه ربٌّ، فبان أمره، وأخرج من بين أصحابه لما غرقوا. وقرأ ابن السميفع، وأبو المتوكل، وأبو الجوزاء ﴿لِمَنْ خَلَفَكَ﴾ بالقاف.

فائدتان:

الأولى: هل ثبت أن جبريل عليه السلام كان يدس في فم فرعون الطين مخافة أن تدركه الرحمة بقوله: لا إله إلا الله؟

وجوابه: قد ورد هذا من طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تصح بمجموعها لكنها أُعلت بالوقف على ابن عباس[(١)]، وقد روي أيضًا عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم وفي سندها مقالٌ أيضًا.

وعلى كلٍّ فإن صححها بالمجموع مصحح فله وجه والله تعالى أعلم.

الثانية: كان هلاك فرعون وجنوده يوم عاشوراء وذلك لما أخرجه البخاري[(٢)] ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة واليهود تصوم عاشوراء، فقال: «**ما هذا اليوم الذي تصومونه؟**» فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه: «**أنتم أحق بموسى منهم، فصوموا**».

---

(١) انظر الطبري (١٧٨٧٢) فما بعده، ومسند أحمد (١/ ٢٤٥، ٣٠٩)، وعبد بن حميد (٦٦٤)، والترمذي (٣١٠٦)، والطيالسي (٢٦١٨) وغيرهم.

(٢) البخاري (٤٦٨٠)، ومسلم (١١٣٠).

آيات من سورة طه

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه: ٧٧-٧٩].

معاني مفردات الآيات الكريمة:

الكلمة	معناها
﴿أَسْرِ بِعِبَادِى﴾	اخرج بعبادي ليلًا من البلاد وسافر بهم.
﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾	فاضرب البحر بعصاك تشق لهم فيه طريقًا يابسًا لا بلل فيه ولا طين.
﴿دَرَكًا﴾	إدراكًا- أن يدركك عدوك.
﴿وَلَا تَخْشَىٰ﴾	لا تخاف.
﴿فَغَشِيَهُم﴾	فغطاهم وحلَّ بهم وأصابهم.
﴿ٱلْيَمِّ﴾	البحر.
﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾	ابتعد بهم عن طريق الحق والصواب.

معنى الآيات المباركات:

المعنى والله أعلم ولقد أوحينا إلى موسى عليه السلام أن اخرج بعبادي الذين هم بنو إسرائيل، اخرج بهم من مصر فإن فرعون وقومه سيتبعوكم فاخرج بعبادي وإذا وصلت إلى البحر، ولم يكن أمامك إلا أن تدرك من فرعون أو تقتحم أنت ومن معك البحر، فاضرب البحر بعصاك ينشق لك البحر وينفلق ويكون فيه طريقٌ يابسٌ بإذن الله فاقتحم الطريق الذي يسره الله لك بضرب البحر بعصاك اقتحم الطريق أنت ومن معك لا تخشى الغرق ولا تخف من إدراك فرعون لك، ففعل موسى عليه السلام ما أمره الله عز وجل به وسلك الطريق الذي يسره الله له وأوجده

الله له في البحر، فاقتحم فرعون أيضًا هذا الطريق، وسلَّم الله موسى عليه السلام ومن معه والتأم البحر على فرعون ومن معه فحل بهم من عذاب الله في البحر ما حلَّ، ونزل بهم ما نزل وصرف فرعون قومه عن طريق الحق وأغواهم وما هداهم.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ﴾ نبينا ﴿مُوسَىٰٓ﴾ إذ تابعنا له الحجج على فرعون، فأبى أن يستجيب لأمر ربه، وطغى وتمادى في طغيانه ﴿أَنْ أَسْرِ﴾ ليلًا ﴿بِعِبَادِى﴾ يعني: بعبادي من بني إسرائيل، ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾ يقول: فاتخذ لهم في البحر طريقًا يابسًا، واليَبَس واليَبْس: يجمع أيباس، تقول: وقفوا في أيباس من الأرض، واليَبْس المخفف: يجمع يبوس.

وأما قوله: ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ فإنه يعني: لا تخاف من فرعون وجنوده أن يدركوك من ورائك، ولا تخشى غرقًا من بين يديك ووَحَلًا.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة: ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ يقول: لا تخاف أن يدركك فرعون من بعدك ولا تخشى الغرق أمامك.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾.

يقول تعالى ذكره: فسرى موسى ببني إسرائيل إذ أوحينا إليه أن أسر بهم، فأتبعهم فرعون بجنوده حين قطعوا البحر، فغشي فرعون وجنده في اليم ما غشيهم، فغرقوا جميعًا ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ يقول جلّ ثناؤه: وجاوز فرعون بقومه عن سواء السبيل، وأخذ بهم على غير استقامة، وذلك أنه سلك بهم طريق أهل النار، بأمرهم بالكفر بالله، وتكذيب رسله ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ يقول: وما سلك بهم الطريق المستقيم، وذلك أنه نهاهم عن اتباع رسول الله موسى، والتصديق به، فأطاعوه، فلم يهدهم بأمره إياهم بذلك، ولم يهتدوا باتباعهم إياه.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى مخبرًا أنه أمر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حين أبى فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل، أن يسري بهم في الليل، ويذهب بهم من قبضة فرعون. وقد بسط الله هذا المقام في غير هذه السورة الكريمة. وذلك أن موسى لما خرج ببني إسرائيل أصبحوا وليس منهم بمصر لا داع ولا مجيب، فغضب فرعون غضبًا شديدًا وأرسل في المدائن حاشرين، أي: من يجمعون له الجند من بلدانه ورَساتيقه، يقول: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ٥٤ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾ [الشعراء: ٥٤، ٥٥] ثم لما جمع جنده واستوثق له جيشه، ساق في طلبهم ﴿فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ﴾ [الشعراء: ٦٠] أي: عند طلوع الشمس ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ أي: نظر كل من الفريقين إلى الآخر ﴿قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ٦١ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ [الشعراء: ٦١، ٦٢]، ووقف موسى ببني إسرائيل، البحر أمامهم، وفرعون وراءهم، فعند ذلك أوحى الله إليه أن اضرب لهم طريقًا في البحر يبسًا فضرب البحر بعصاه، وقال: «انفلق بإذن الله» ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣] أي: الجبل العظيم. فأرسل الله الريح على أرض البحر فلفحته حتى صار يابسًا كوجه الأرض؛ فلهذا قال: ﴿فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا﴾ أي: من فرعون، ﴿وَلَا تَخۡشَىٰ﴾ يعني: من البحر أن يغرق قومك.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ﴾ أي: البحر ﴿مَا غَشِيَهُمۡ﴾ أي: الذي هو معروف ومشهور. وهذا يقال عند الأمر المعروف المشهور، كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ [النجم: ٥٣، ٥٤]، وكما قال الشاعر:

أَنَا أَبُو النَّجْم وشِعْري شِعْرى

أي: الذي يعرف، وهو مشهور.

وكما تقدمهم فرعون فسلك بهم في اليم فأضلهم وما هداهم إلى سبيل

الرشاد، كذلك ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾.

[هود: ٩٨]

آيات من سورة الصافات

قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الصافات: ١١٤-١٢٢]

معاني مفردات الآيات المباركات:

الكلمة	معناها
﴿مَنَنَّا﴾	تفضلنا
﴿ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾	العذاب الذي كانوا يلاقونه من فرعون وجنوده - وقيل: الغرق - وقيل: ملاحقة فرعون لهما
﴿ٱلْمُسْتَبِينَ﴾	المتبين الواضح - المبين للأحكام والشرائع والأخبار
﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾	أرشدناهما إلى طريق الحق والصواب ووفقناهما لسلوكه.

المعنى الإجمالي:

يُذكِّر الله عَزَّوَجَلَّ بما منَّ به على موسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فقد منَّ عليهما بأن جعلهما نبيين كريمين وَجِيهَين، وجعلهما سببًا لنجاة قومهما من الكرب العظيم، ومنَّ عليهما بنصرهما على عدوهما، وبالكتاب الذي أنزل على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وبالهداية والتوفيق للإيمان والسداد.

ومنَّ عليهما بإنجائهما وقومهما من الكرب العظيم.

هذا الكرب العظيم هو ما كان يلقاه الإسرائيليون من عذاب من قِبل آل فرعون، إذ كانوا يقتلون أبناءهم ويستحيون نساءهم.

وقيل: الكرب العظيم: مطاردة فرعون وقومه لهما.

وقيل: الكرب العظيم: الغرق.

ومنَّ عليهما بنصرهما وقومهما فكانوا هم الغالبين وهذا النصر صورته أن الله عَزَّوَجَلَّ أغرق بمنِّه وكرمه وفضله آل فرعون، وأورث القوم الذين كانوا يستضعفون (وهم بنو إسرائيل، ومنهم موسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ) مشارق الأرض ومغاربها التي بارك الله فيها.

وكذا من عليهما بإعطائهما الكتاب المستبين التوراة الواضحة النيِّرة البينة ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الصافات: ١١٨] وفقناهما لسلوك الطريق المستقيم الموصل إلى جنة الله عَزَّوَجَلَّ وإلى مرضاته ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الصافات: ١١٩، ١٢٠] أي: وتركنا عليهما ثناءً حسنًا فيمن جاء بعدها وهكذا يجزي الله كل محسن إذ الله قال: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٢١]، ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ١٢٢].

فأعيد صياغة المعنى الإجمالي، فأقول، وبالله التوفيق:

ولقد تفضلنا على موسى وهارون وأكرمناهما بجعلهما نبيين كريمين، وسلمناهما وقومهما (الذين هم بنو إسرائيل) من الكرب العظيم الذي كانوا يعيشونه من الامتهان والإذلال وقتل الرجال وذبح الأطفال واستحياء النساء، وأتممنا عليهم الفضل بأن أغرقنا فرعون وآله، ونصرنا بني إسرائيل وتفضلنا عليهما (أي على موسى وهارون) بالتوراة التي فيها هدى ونورٌ، يُستضاء بها ويسترشد، ووفقناهما لسلوك الطريق المستقيم المؤدي إلى مرضاة الله عَزَّوَجَلَّ